ومما عرف المعتبر أن ما ينويه من صالح قلبه وما يجريه في أعماله من التوفيق يبقى في الآخرة
من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الفاضح حيث ينادى
على رؤوس الأشهاد يا فاجر يا غادر يا مرائي أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله تعالى عرض الدنيا راقبت
قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله وتزينت لهم بالشين عند الله
وتقربت إليهم بالبعد من الله وتحمدت عندهم بالتذمم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما
كان أحد أهون عليك من الله فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين
لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به
ميزان حسناته لو خلص فإذا فسد بالرياء حوّل إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار فلو لم
يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته
راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم
بسبب الرياء ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب
ملاحظة قلوب الخلق فإن رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم
في سخط بعض ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أي غرض له في
مدحهم وإيثار ذمهم لأجل حمدهم ولا يزيد مدحهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم
القيمة وأما الطمع لما في أيديهم فإن علم أن الله سبحانه هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق
مضطرون إليه فلا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد
لم يخل من المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله لرجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ وإذا
أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئا لم يكتبه الله عليه ولا
يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا
عند الله ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا
يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله
قلبه فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء
وإظهار الإخلاص لمقتوه وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند
الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه
مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال الشاعر من بني تميم إن مدحي زين وإن ذمي شين فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت ذلك الله عز وجل لا كذا الامر اذ لا زين الا زينه ولا شين الا شينه فاي
خير لك في مدح الناس وانت عند الله مذموم ومن اهل النار واي شر لك في ذم الناس وانت عند الله محمود
في زمرة المقربين فمن احضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق
ايام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف الى الله قلبه وتخلص من مذلة الريا
ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من اخلاصه انوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح له من لطائف
المكاشفات ما يزيد به انسه بالله ووحشته من الخلق واحتقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط
محل الخلق عن قلبه وانحلت عنه داعية الريا وتذلل له منهاج الاخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر
الاول هي الادوية العلمية القالعة لمغارس الريا واما الدواء العملي فهو ان يعود نفسه اخفاء العبادات
واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله تعالى واطلاعه على عباداته
ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به وقد روي ان بعض اصحاب ابي حفص الحداد ذم الدنيا واهلها فقال
له ابو حفص اظهرت ما كان سبيلك ان تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص في اظهار هذا القدر لان
في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للريا مثل الاخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة فاذا صبر
عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهون عليه ذلك بتواصل الطاف الله وما يمد به عباده من حسن
التوفيق والتأييد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية
ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع اجر المحسنين وان تك حسنة يضاعفها ويؤت
من لدنه اجرا عظيما **المقام الثاني** في دفع العارض منه في اثناء العبادة وذلك لا بد
من تعلمه ايضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الريا من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واسقط
نفسه من اعين المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في اثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الريا
ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية فلا بد ان يتشمر لدفع ما يعرض من
خواطر الريا وخواطر الريا ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج فالاول
العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة
عندهم ثم يتلوه قبول النفس له والركون اليه وعقد الضمير على تحقيقه فالاول معرفة والثاني حالة
تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد وانما كمال القوة في دفع الخاطر
الاول ورده قبل ان يتلوه الثاني فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق او رجاء اطلاعهم دفع ذلك بان
يقول لنفسه ما لك وللخلق علموا او لم يعلموا ان الله عالم بحالك فاي فائدة في علم غيره فان هاجت

الرغبة الى هذا الحد فذكر ما نعم في طبعه من قبل من آفة الرياء ومعرضته للمقت عند الله في القيامة
وخيبته في احوج اوقاته الى اعماله فكما ان معرفة اطلاع الناس تبعث شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة
آفة الرياء تبعث كراهة له تقابل تلك الشهوة اذ يتفكر في تعرضه لمقت الله سبحانه وعقابه الاليم فالشهوة
تدعو الى القبول والكراهة تدعو الى الاباء والنفس تطاوع لا محالة اقواهما واغلبهما فاذن لا بد
من رد الرياء من ثلاثة امور المعرفة والكراهة والاباء وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الاخلاص
ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان اضمارها عليها وانما سبب
ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب المدح واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب
متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته اذ لم يبق موضع في
القلب خال عن شهوة الحمد او خوف الذم وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم
على الحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الاسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابق عزمه
ويستولي على قلبه غيظ يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل عنها فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب
وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب والى ذلك اشار جابر رضي الله عنه بقوله بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
تحت الشجرة على ان لا نفر ولم نبايعه على الموت فانسيناها يوم حنين حتى نودي يا اصحاب
الشجرة فرجعوا وذلك لان القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا
واكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون اذ تنسي معرفتها الداخلة في عقد الايمان ومهما
نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر فيعلم ان الذي خطر له خاطر
الرياء الذي يعرضه لسخط الله ولكنه يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على
ترك لذة الحال ويسوف بالتوبة او يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة فكم من عالم يحضره
كلام لا يحمله الى قصد الرياء بالخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فيكون الحجة عليه اوكد اذ قبل
داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ولا ينفعه معرفته اذا خلت المعرفة من الكراهة
وقد يحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالاضافة
الى قوة الشهوة وهذا ايضا لا ينتفع بكراهته اذ الغرض من الكراهة ان تصرف عن الفعل فاذن لا فائدة
الا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والاباء فالاباء ثمرة الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة
المعرفة بحسب قوة الايمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة
وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك ينتج

بما يبتنى وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لأن حب
الجاه والمنزلة من نعيم الدنيا هو الذي غلب على القلب ويتشبث به ويحول بينه وبين التفكر في العاقبة
والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلماء فإن غلبت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحمله
الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه
ولميله غير مجيب له فهل يكون في زمرة المرائين فاعلم أن الله تعالى لم يكلف العبد إلا ما يطيق وليس
في طاقة العبد منع الشيطان من نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينازع إليها وإنما
غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم
الآخر فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم شكوا إليه فقالوا يعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي
بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها فقال أوقد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان
ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة
المساوقة للوسوسة والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى وإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة
فبأن يندفع ضرر الأصغر أولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال الحمد
لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة وقال أبو حازم ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا
يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك فعاتبها عليه فإذن وسوسة الشيطان
ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة والخواطر التي هي العلوم والتذكرات
والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس
والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهو أنه إذا عجز عن حمله على
قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى
يسلبه بذلك ثواب الإخلاص وحضور القلب لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر
المناجاة مع الله تعالى وذلك نقصان في منزلته عند الله تعالى والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر
الرياء على أربع مراتب الأولى أن يرد على الشيطان تكذيبه ولا يقتصر على الرد بل يشتغل بمجادلته ويطيل
الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لأنه اشتغل عن مناجاة الله سبحانه
وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان
في السلوك الرتبة الثانية أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه

ولا يشتغل بمجادلته الرتبة الثالثة ان لا يشتغل بتكذيبه ايضا لان ذلك وقفة وان قلت بل يكون
قد قرر في عقده نفي كراهة الرياء وتكذيب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا الكراهة غير مشتغل
بالتكذيب ولا بالمخاصمة الرتبة الرابعة ان يكون قد علم ان الشيطان سيحسد عند جريان اسباب الرياء
فيكون قد عزم على انه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله واخفاء
الصدقة والعبادة غيظا للشيطان فذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب اياسه وقنوطه
حتى لا يرجع ويروى عن الفضيل بن غزوان انه قيل له ان فلانا ذكرك قال والله لاغيظن من امره
امره قال الشيطان ثم قال اللهم اغفر له اي لاغيظنه بان اطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد
هذه العادة كف عنه خيفة ان يزيد في حسناته وقال ابراهيم التيمي ان الشيطان ليدعو العبد
الى باب من الاثم فلا يطيعه وليحدث عند ذلك خيرا ثم يدعو الى الباب من الاثم فلا يطيعه وليحدث عند
ذلك خيرا ثم يدعو الى الباب من الاثم فلا يطيعه وليحدث عند ذلك خيرا فاذا راه كذلك تركه
وقال ايضا اذا راك الشيطان مترددا طمع فيك واذا راك مداوما ملك وقلاك فهذه الحالات الاربع
بعد اي هذه الاربعة من الاحسن فقال انما مثل الناس في الوجوه الاربعة مثل رجال اربعة ارادوا
مجلس حديث او ذكر يقتبسون منه فوائد فحسدهم ضال في طريقهم الصلاة في جماعة او جمعة
فمر احدهم برجل من اهل الضلالة فعرض له بان ينهاه عما نوى من [illegible] يقصد فلما راه يابى ان
يرجع اشتغل بمجادلته فقام عليه يجادله وغرضه من ذلك ان يحبس [illegible] ليفوته مقصوده
فغضب ومر الثاني عليه فنهاه عن الانطلاق الى الموضع الذي يريده فكذبه فشتمه فسر به فما
الضال بقدر ما يفوته من مجلسه بالوقفة عليه ومر الثالث فمر به ساعيا ايضا فعرض له بالنهي
والتثبيط وقد علم ما لقي اصحابه من الحبس فمضى ولم يقف عليه ولم يحدث شيئا ومر الرابع وقد علم
ما لقي اصحابه من الحبس فلما الح عليه بحيث ان كان ماشيا سعى وان كان ساعيا اسرع بالرجعة
ليغيظه ولئلا يفوته ما يطلب وليدرك ما طلبه تاما ولا يكون كاصحابه الذين من جهته في شكك واما
عليه ان يصرفهم فيجمع هذا الرابع لانه اتخذ دعاءه سببا وزيادة في الخير بما يدعوه اليه والاعلان عما دعا
اليه الصنف فكذلك التقي الكيس من المخلصين فالشيطان اذا كان لا يصبر عن زيادة
فهل يجب التزود قبل حضوره للحذر منه اشتغالا بالوحدة ام يجب التوكل على الله تعالى ليكون هو
الدافع له ام يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه قلنا اختلف الناس في ذلك على ثلثة اوجه
فذهبت فرقة من اهل البصرة الى ان الاقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لانهم انقطعوا

الله تعالى واشتغل بطاعته واحترامهم الشيطان ويحزنهم ويخشى عنهم كما انه من ضعفاء العباد في الدعوة
الى الحق وان انقطعت فلاثنا الدنيا عندهم وان كانت مباحة كالحلل الحرير والدخلان من جهتها بالكلية
لم يبق للشيطان اليهم سبيل في الاعانة بهم الى الحذر وذهبت فرقة من اهل الشام الى ان الزهد
والحذر منه انما يحتاج اليه من داسه ونقص توكله فمن ايقن ان لا شريك لله في تدبيره لم يحذر غيره
وعلم ان الشيطان ذليل مخلوق ليس اليه امر ولا يكون الا ما اراده الله تعالى وهو الضار النافع وانما
يستحي منه ان يحذر غيره واستغنى بالوحدانية عنه عن الحذر وقالت فرقة من اهل العلم لا بد من
الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من ان الاقوياء استغنوا عن الحذر بخلو قلوبهم من حب الدنيا
بالكلية وحب الدنيا هو سبيل الشيطان الى القلوب وهذا القول يكاد يكون غير دال اذ الانبياء
لم يخلصوا من وساوس الشيطان ونزغاته فكيف بغيرهم وليس كل وساوس الشيطان من الشهوات
وحب الدنيا في صفات [illegible] وانما يسعى في تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا يخلو احد من الخطر
فيه ولذلك قال الله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته
فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم وقال النبي صلى الله عليه وسلم انه ليغان على
قلبي مع ان شيطانه قد اسلم ولا يامر الا بخير فمن ظن ان اشتغاله بحبله اكثر من اشتغال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وسائر الانبياء فهو مغرور ومن لم يتحصن لذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم صلوات الله عليهما
وما عليها السلام في الجنة التي هي دار الامن والسرور حيث قال ان هذا عدو لك ولزوجك
فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى [illegible] آدم [illegible]
الا من شجرة واحدة [illegible] ذلك ما اراده الله [illegible] الانبياء [illegible] الجنة دار
الامن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز الغرور بالامن في دار الدنيا وهي منبع الفتن
والمحن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها وقال موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان
ولذلك حذرنا الله تعالى في جميع الخلق فقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج
ابويكم من الجنة وقال الله تعالى انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم والقرآن من اوله الى آخره تحذير
من الشيطان فكيف يدعي الامن فيه [illegible] امر الله تعالى به الانبياء في الاستعداد
[illegible] من الحذر [illegible] بالحذر من العدو كما امر بالحذر من الكفار فقال تعالى
وخذوا حذركم وقال تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم فاذا امرك الله بالحذر من العدو الكافر وانت تراه فبان تحذر من العدو من حيث لا تراه

ولا تراه انما ذلك قال ابن محيريز صيد تراه ولا يراك يوشك ان تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك ان
يظفر بك فاشار الى الشيطان كيف وليس في التحذير من عداوة الكافر الا فضل هو شهادة وفي اهمال
الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الاليم فليس من الاشتغال باصعب من الاعراض عما
سواه وبهذا بطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم ان ذلك قادح في التوكل فان اخذ الترس
والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح
في التوكل الخوف مما خوف الله تعالى منه والحذر مما امر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين
غلط من ظن ان معنى التوكل النزوع عن الاسباب بالكلية وقوله واعدوا لهم ما استطعتم من قوة
ومن رباط الخيل لا ينافي التوكل مهما اعتقد القلب ان الضار والنافع هو الله والمحيي والمميت
هو الله فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد ان الهادي والمضل هو الله تعالى ويرى الاسباب وسائط
مسخرة كما ذكرناه في كتاب التوكل وهذا ما اختاره المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له
نور العلم وما قبله يشبه ان يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ويظنون ان ما يهجم
عليهم من الاحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر لهم دائما وذلك بعيد ثم اختلف
هذه الفرقة على ثلاثة اوجه في كيفية الحذر فقال قوم اذ حذرنا الله العدو فلا ينبغي ان يكون
شيء اغلب على قلوبنا من ذكره والترصد له فانا ان غفلنا عنه لحظة فيوشك ان يهلكنا
وقال قوم ان ذلك يؤدي الى خلو القلب من ذكر الله عز وجل واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك
مراد الشيطان منا بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله ولا ننسى الشيطان وعداوته وحاجتنا الى الحذر
فنجمع بين الامرين فانا ان نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسبه وان تجردنا لذكره كنا اعرضنا عن ذكر
الله فالجمع اولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان اما الاول فقد تجردوا لذكر الشيطان
ونسيت ذكر الله فلا يخفى غلطهم وانما امرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف
نجعل ذكره اغلب الاشياء على قلوبنا وهذا منتهى غرض العدو ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب من نور
ذكر الله تعالى فاذا قصده الشيطان بشر وهذا القلب وليس فيه نور ذكر الله ربما لا نقوى على دفعه
فيوشك ان يظفر ولا نقوى على دفعه فلم يامرنا بانتظار الشيطان ولا بادمان ذكره واما الفرقة الثانية
فقد شاركت الاولى اذ جمعت في القلب بين ذكر الله وذكر الشيطان بقدر ما يشتغل القلب
بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله تعالى والله سبحانه امر الخلق بذكره ونسيان ما عداه ابليس وغيره
فالحق ان يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فاذا اعتقد هذا وصدق

بها ما استقر الحذر في قلبه اشتغل بذكر الله ومن شأنه بكل الهمة والاضطراب الذي أمر الشيطان فإنه إذا اشتغل
بذلك بعد معرفة عداوة الشيطان له تنبه لخطرته وعند التنبه يشتغل بنفسه عن الاشتغال بكيده
إذ لا يمنع من التيقظ منه ومن مكيدة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح
فيلزم نفسه الحذر فينام على نية أن ينتبه في ذلك الوقت فينتبه في الليلة مرات قبل إتيان الوقت
الذي أراده لما سكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه ما شغله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل
هذا القلب هو الذي يقدر على دفع العدو لو كان اشتغاله بجودة ذكر الله فتحاماه منه العدو ما يحميه
من العلم والعمل وأما المظلمة بالشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده
وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ورفضوا بالذكر شر العدو واستضاؤا بنور الذكر حتى اطرحوا
خواطر العدو فمثال القلب مثال حوض يراد تطهيره من الماء القذر ليتفجر منه الماء الصافي فالمشتغل
بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله نزح الماء القذر من جانب
البئر ولكن ترك مجاريها من جانب آخر فيطول تعبه ولا يجف البئر من الماء القذر مع ذلك والبصير هو
الذي يجعل مجرى الماء القذر سدا ثم يملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد
من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في
الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ولكن في الإظهار أيضا فائدة
ولذلك أثنى الله عز وجل على السر والعلانية فقال تعالى إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها
وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم والإظهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخر بالتحدث بما عمل القسم الأول
إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة
فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فعمل بها كان له
أجرها وأجر من اتبعه ثم تجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء
على الطباع في الصدقة أغلب نعم الغازي إذا هم بالخروج واستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا
لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه
ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة الليل لينبه جيرانه وأهله
فيقتدى به فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه
للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما ما يمكن إسراره كالصلاة والصدقة فإن كان إظهاره

الصدقة ويدعي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام وإن لم يكن في ذلك
إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة
وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها والعلانية للقدوة أفضل من السر ويدل على أن الله
سبحانه أمر الأنبياء عليهم بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم
أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم أجرها وأجر من عمل بها وقد روي أن
عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استن به صاحبه على عمل
السر سبعين ضعفا وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص
على وجه واحد في الحالين فما يقتدى به أفضل لا محالة وإنما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت
شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل
وظيفتان إحداهما أن يظهر حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدي به أهله دون
جيرانه وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق وربما يقتدي به أهل محلته وإنما العالم المعروف هو
الذي يقتدي به الناس كافة وغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق
وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة
على من هو في محل الاقتداء به والوظيفة الثانية أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي
فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به وهذا حال كل
من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك
وهو لا يشعر فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى
فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلك وهلكوا والغرق بالماء في الدنيا ساعة وليت الهلاك بالرياء
كان مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء
في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض ومحكه
أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون
لك في السر مثل أجر الإعلان فإن مالت نفسه إلى أن يكون هو المقتدى به والمظهر للعمل فباعثه الرياء
دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره
قد توفر عليه مع إسراره فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم فليحذر العبد
خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب وقلما تسلم

الاعمال الظاهرة من الآفات فلا ينبغي ان يعدل بالسلامة شيء والسلامة في الاخفاء وفي الاظهار
من الاخطار ما لا يقوى عليه امثالنا فالحذر من الاظهار اولى بنا وبجميع الضعفاء. القسم الثاني
ان يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر في هذا اشد لان مونة النطق
خفيفة على اللسان وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في اظهار الدعاوي عظيمة الا
انه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر في افساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه
اهون والحكم فيه ان من قوي قلبه وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم
وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز بل مندوب اليه ان
صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك
عن جماعة من السلف الاقوياء. قال سعد بن معاذ ما صليت صلاة منذ اسلمت فحدثت نفسي
فيها بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ولا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
قولا الا علمت انه حق. وقال عمر ما ابالي اصبحت على عسر او على يسر لاني لا ادري ايهما خير لي وقال ابن مسعود
ما اصبحت على حال فتمنيت ان اكون على غيرها وقال عثمان ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري
بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شداد بن اوس ما تكلمت بكلمة منذ اسلمت
حتى ازمها واخطمها الا هذه وكانت ندت منه الكلام ايضا [illegible] بعيث يلحق مثل تلك الغداة. وقال
ابو سفيان لاهله حين حضرته الوفاة لا تبكوا علي فاني ما احدثت ذنبا منذ اسلمت وقال عمر بن
عبد العزيز ما قضى الله في بقضاء فسرني ان يكون قضى لي بغيره وما اصبح لي هوى الا في مواقع قدر الله
فهذا كله اظهار لاحوال شريفة وفيها غاية المراياة اذا صدرت ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب
اذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للاقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي ان
يسد باب الاظهار والاعمال والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل اظهار المرائي للعبادة اذا لم
يعلم الناس انه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي فكم من مخلص كان سبب اخلاصه الاقتداء
بمن هو مراء عند الله تعالى وقد روي انه كان يجتاز الانسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع
اصوات المصلين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس
الرغبة في ذلك فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فاظهار المرائي فيه خير كثير لغيره اذا لم
يعرف رياؤه فان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وباقوام لا خلاق لهم كما ورد في الاخبار
وبعض المرائين ممن يقتدى بهم منهم. بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها

وكراهة ذمهم لاجلها اعلم ان الاصل في استواء السريرة والعلانية كما قال عمر لرجل عليك بعمل العلانية
قال يا امير المؤمنين وما عمل العلانية قال ما اذا اطلع عليك لم تستحي منه وقال ابو مسلم الخولاني ما
عملت عملا ابالي ان يطلع الناس عليه الا اتياني اهلي والبول والغائط الا ان هذه درجة عظيمة
لا ينالها كل احد فلا يخلو الانسان من ذنوب بقلبه او بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس
عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر من الشهوات والاماني والله تعالى مطلع على جميع ذلك فارادة
العبد لاخفائه عن العبيد ربما يظن انه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور ان يستر ذلك ليرى
الناس انه ورع وانه خائف من الله مع انه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي واما الصادق الذي
لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده في ذلك ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية اوجه
الاول هو ان يفرح بستر الله عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف ان يهتك ستره في القيمة
اذ ورد في الخبر ان من ستر الله عليه في الدنيا ستر عليه في الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الايما
والثاني انه قد علم ان الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فهو وان عصى الله تعالى بالذنب فلم يخل
قلبه عن محبة ما احبه الله وهذا ايضا ينشأ من قوة الايمان بكراهة الله ظهور المعاصي واثر الصدق فيه
ان يكره ظهور الذنب من غيره ايضا ويغتم بسببه الثالث ان يكره ذم الناس له به من حيث ان ذلك
يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل
عن طاعة الله تعالى وبهذه العلة ايضا ينبغي ان يكره الحمد الذي يشغله عن الله ويستغرق قلبه
ويصرفه عن الذكر وهذا ايضا من قوة الايمان اذ صدق الرغبة في فراغ القلب لاجل الطاعة من
الايمان الرابع والخامس ان يكون ستره ورغبته في الكراهية ذم الناس من حيث تأذي طبعه
فان الذم مؤلم للقلب كما ان الضرب مؤلم للبدن وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به
عاص وانما يعصي اذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته الى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب
على الانسان ان لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به نعم كمال الصدق في ان يزول عنه رؤية الخلق
فيستوي ذامه ومادحه لعلمه ان الضار والنافع هو الله تعالى وان العباد كلهم عاجزون وذلك
قليل جدا واكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود اذا كان
الذام من اهل البصيرة في الدين فانهم شهداء الله تعالى وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصانه
في الدين فكيف لا يغتم به نعم الغم المذموم هو ان يغتم لفوات الحمد بالورع كانه يحب ان يحمد بالورع

ولا يعرون يجب ان يحمد بطاعة الله تعالى فيكون قد طلب بطاعة الله تعالى ثوابا من غيره فان وجد ذلك
من نفسه وجب عليه ان يقابله بالكراهة والرد واما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس
بمذموم فله الستر صونا من ذلك ومقصودات يكون بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وانما مراده ان
يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد ولا يصبر على الم الذم اذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة
لا يؤلم واما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال واما كراهة الذم على
المعصية فلا محذور فيه الا امر واحد وهو ان يشغله غمه باطلاع الخلق عن غمه من اطلاع الله تعالى فان
ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي ان يكون غمه باطلاع الله وذمه له اكثر وقد يكره الذم من حيث
ان الذام قد عصى الله به وهذا من الايمان وعلامته ان يكره ذمه لغيره ايضا فهذا التوجع لا يفرق بين
نفسه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع السادس ان يستر كيلا يقصد بشر اذا عرف ذنبه وهذا
وراء الذم فان الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وان كان ممن يؤمن شره وقد يخاف
شر من يطلع على ذنبه بسبب من الاسباب فله ان يستر ذلك حذرا منه السابع مجرد الحياء فانه نوع
الم وراء الم الذم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث في اول الصبي مهما اشرق عليه نور العقل فيستحي من
القبائح اذا شوهدت منه وهو وصف محمود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله وقال صلى الله عليه وسلم
الحياء شعبة من الايمان وقال صلى الله عليه وسلم الحياء لا يأتي الا بخير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب
الحيي الحليم فالذي يفسق ولا يبالي بان يظهر فسقه للناس جمع الى الفسق التهتك والوقاحة
وفقد الحياء فهو اشد حالا ممن يستر ويستحيي الا ان الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما
قل من يتفطن له ويدعي كل مراء انه مستحي وان سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس
وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصور
ان يخلص معه ويتصور ان يرائي معه وبيان ذلك ان الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسمح
باقراضه الا انه يستحيي من رده ويعلم انه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيي ولا يقرض رياء ولا
طلب ثواب فله عند ذلك احوال احدها ان يشافهه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب الى قلة الحياء
وهذا فعل من لا حياء له فان المستحيي اما ان يتعلل او يقرض فان اعطى فيتصور له ثلاثة احوال
احدها ان يمزج الرياء بالحياء بان يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي ان يعطي
حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء او ينبغي ان تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك الى البخل
فاذا اعطى فقد اعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هيجان الحياء الثاني ان يتعذر

عليه الا بالحيا، وهو في نفسه البخل فيمنعه الاعطا، فيهيج باعث الاخلاص ويقول له ان الصدقة
بواحدة بالعشر خاتبه مشرفيه اجر عظيم وادخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى
فتسخو النفس بالاعطا لذلك فهذا اخلاص هيجه الحيا. الحالة الثالثة ان لا يكون له رغبة في الثواب
ولا خوف من مذمته ولا حب لحمده ولانه لو طلبه من سائر الناس لكان لا يعطيه فاعطاه بمحض الحيا
وهو ما يجده في قلبه من الم الحيا، ولولا الحيا لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الاجانب او الاراذل
لكان يرده وان كثر الحمد والثواب فيه. وهذا مجرد الحيا. ولا يكون هذا الا في القبائح كالبخل ومقارفة
الذنوب. والمرائي يستحي من المباحات ايضا حتى انه يرى مستعجلا في المشي فيعود الى الهدوء او
ضاحكا فيرجع الى الانقباض ويزعم ان ذلك حيا وذلك عين الريا. وقد قيل ان بعض الحيا ضعف
وهو صحيح والمراد منه الحيا مما ليس بقبيح كالحيا من وعظ الناس وامامة الصلاة وفي النسا
والصبيان ممدوح وفي الصلاة غير ممدوح وقد يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته ان
ينكر عليه لان من اجلال الله اجلال ذي الشيبة وهذا الحيا حسن واحسن منه ان يستحي من الله
فلا يضيع الامر بالمعروف فالقوي يؤثر الحيا من الله عز وجل على الحيا من الناس والضعيف
قد لا يقدر على ذلك فهذه هي الاسباب التي يجوز لاجلها ستر القبائح والذنوب. الثامن ان يخاف
من ظهور ذنبه ان يستجرئ غيره على مثل ذلك الذنب غير مقتد به فيه وهذه العلة الواحدة
فقط هي الجارية في اظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالائمة او بمن يقتدى به وبهذه
العلة ينبغي ان يخفي العاصي ايضا معصيته من اهله وولده لانهم يتعلمون منه ففي ستر الذنوب
هذه الاعذار الثمانية وليس في اظهار الطاعة عذر الا هذا العذر الواحد ومهما قصد ستر المعصية
ان يخيل الى الناس انه ورع كان مرائيا كما اذا قصد ذلك باظهار الطاعة. فان قلت فهل يجوز
للعبد ان يحب حمد الناس له بالصالح وحبهم اياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم
دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ اليهم هذا الحطام
يحبوك فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود ان
تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه اذا احب عبدا حببه الى قلوب عباده والمذموم ان تحب
حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله
[illegible] لا سوى [illegible] والمباح ان تحب ان يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحضة المعينة
فحبك ذلك كحبك المال لان ملك القلوب وسيلة الى الاغراض كملك الاموال فلا فرق بينهما بشأن

ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات اعلم ان من الناس من يترك العمل خوفا من
ان يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك لخوف الآفة
ما نذكره وهو ان الطاعات تنقسم الى ما لا لذة في عينها كالصلاة والصوم والحج فانها مجاهدات
وانما تصير لذيذة من حيث انها توصل الى حمد الناس وحمد الناس لذيذ وذلك عند اطلاع الناس عليه
والى ما هو لذيذ وهو الاكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة
وامامة الصلاة والتذكير والتدريس وانفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق
ولما فيه من اللذة القسم الاول الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة فيها
بعينها كالصلوة والصوم والحج فخطرات الرياء فيها ثلاثة احدها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية
الناس وليس معه باعث الدين فهذا ينبغي ان يترك لانه معصية لا طاعة فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب
المنزلة فان قدر الانسان على ان يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها الا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل
لاجله وتسخين بالعمل لاجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر
الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل الثاني ان ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة واولها
فلا ينبغي ان يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل الاخلاص
بالمعالجات التي ذكرناها من الزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول الثالث ان يعقد على الاخلاص
ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي ان يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع الى عقد الاخلاص ويرد
نفسه اليه قهرا حتى يتم العمل لان الشيطان يدعوك اولا الى ترك العمل فان لم تجبه واشتغلت دعاك
الى الرياء فان لم تجبه ودفعت بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص وانت مراء وتعبك ضائع فاي
فائدة لك في عمل لا اخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال
من يترك العمل لخوفه ان يكون مرائيا كمن سلم اليه مولاه حنطة فيها زوان وقال خلصها
من الزوان ونقها منه تنقية بالغة فيترك اصل العمل ويقول اخاف ان اشتغلت به لم تخلص خلاصا
صافيا نقيا فترك العمل من اجله هو ترك الاخلاص مع اصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل ان يترك
العمل خوفا على الناس ان يقولوا انه مراء فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان لانه
اولا اساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه ان يظن بهم ذلك ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته
ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم انه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من
مذمتهم فما له ولقولهم قالوا انه مراء او قالوا انه مخلص واي فرق بين ان يترك

العمل خوفا من ان يقال انه مرائي وبين ان يحسن العمل خوفا من ان يقال انه غافل مقصر بل ترك العمل
اشد من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع في ان يتخلص من
الشيطان بان يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس انك تركت العمل ليقال
انك مخلص لا تشتهي الشهرة فيضطرك بذلك الى ان تهرب فلو هربت ودخلت سربا تحت الارض
القى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف
تتخلص بل لا نجاة منه الا بان تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو انه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا
لتلزم الكراهة والاباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وان نزغ الشيطان ونازع الطبع
فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لاجل ذلك يجر الى البطالة وترك الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيا
على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء والزم قلبك الحياء من الله تعالى اذ دعتك نفسك الى ان
تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وانك تريد حمدهم
لمقتوك بل ان قدرت على ان تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان
انت مرائي فاعلم كذبه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله
وان لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند
ذلك وهو بعيد عمن شرع في العمل لله تعالى فانه لا بد ان يبقى معه اصل قصد الثواب فان قلت
فقد نقل عن قوم تركوا العمل مخافة الشهرة روي عن ابراهيم النخعي انه دخل عليه انسان فاطبق
المصحف وترك القراءة وقال لا يرى هذا انا نقرأ كل ساعة وقال ابراهيم التيمي اذا اعجبك الكلام
فاسكت واذا اعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن ان كان احدهم ليمر بالاذى ما يمنعه من دفعه
الا كراهة الشهرة وكان احدهم يأتيه البكاء فيصرفه الى الضحك مخافة الشهرة وقد وردت في ذلك
آثار كثيرة قلنا هذا يعارضه ما ورد من اظهار الطاعة عمن لا يحصى واظهار الحسن البصري هذا
الكلام في معرض الوعظ اقرب لان خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذى عن الطريق ثم لم يترك
وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء دون الضعفاء
فالافضل ان يتم العمل ويجتهد في الاخلاص ولا يتركه وارباب الاعمال قد يعالجون انفسهم بخلاف
الافضل لشدة الخوف والامتحان فينبغي ان يكون الاقتداء بالاقوياء واما اطباق ابراهيم النخعي المصحف فيمكن
ان يكون لعلمه بانه سيحتاج الى ترك القراءة عند دخوله واستئنافها بعد خروجه للاستعانة به
حتى يعود اليها بعد ذلك واما ترك دفع الاذى فذلك من يخاف على نفسه الشهرة ما اتقى الا

على ويتعلم اياه من عبادات هي اكثر من نفع خشية من الطريق فيكون تركه ذلك للفاقة على عبادات
اكثر من ذلك لاجل حسن ايانها [illegible] المتقي اذا اعجبك الكلام فاسكت وعن ان يكون اردت
مباحات الكلام كالفصاحة من الحكايات ونحوها فان ذلك نوع من العجب وكذلك العجب بالسكوت
المباح محذور فهو بعد لعن مصلح الى مصلح منها من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم نعص
عليه مثل ان الآفة ما تتعلق بالكلام فهو مانع من القسم الثالث فانه لا ينافي العبادات لكنها
يندب لمن يعمل لا يتعلق بالناس ولا اعظم به الآفات ثم كلام النفس يشترك البكاء والملة الادنى
لعن الشهوة عنها فحكاية احوال الضعفاء المعنى لا يعرفون الاشتغال ولا يمكن حفظ الدقائق
وانا ذكرنا نحو ما التابس من آفة الشهوة ونحوها من طلبها القسم الثاني ما يتعلق بالخلق ويعظم
فيه الآفات والاخطار واعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير ثم التدريس والفتوى ثم انفاق
المال اما الخلافة والامارة فهي من افضل العبادات اذا كانت مع العدل والاخلاص وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازي
يوم منها عبادة ستين عاما وقال النبي صلى الله عليه وسلم اول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط
الحديث وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل الحديث وقال صلى الله
عليه وسلم اقرب الناس مني مجلسا يوم القيمة امام عادل رواه ابو سعيد الخدري فالامارة والخلافة
من اعظم العبادات ولم يزل المتقون يحترزون منها ويتركونها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها
من عظم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ
الامر وهو اعظم ملاذ الدنيا واذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ويوشك ان
يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على ما يزيد في مكانته
وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون من سلطان جائر [illegible] من ستين سنة بمقتضى
الحديث الذي ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول من يأخذها بما فيها وكيف لا
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من والي عشرة الا جاء يوم القيمة مغلولة يده الى عنقه اطلقه عدله او
اوبقه جوره [illegible] رواه معقل بن يسار وولاه عمر رضي الله عنه ولاية فقال يا امير المؤمنين
اشر علي فقال اجلس واكتم علي [illegible] ان [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله
عليه وسلم [illegible] عبد الرحمن بن سمرة اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد
الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها وان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها

وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لرافع بن عمير لا تامرن على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع الم تقل
لي لا تامرن على اثنين وانت قد وليت امة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وانا اقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها
فعليه بهلة الله يعني لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الامارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضا
وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص الاقوياء في الدين لا ينبغي ان يمتنعوا من تقلد الولايات وان الضعفاء
لا ينبغي ان يدوروا بها فيهلكوا واعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تاخذه في الله لومة
لائم وهم الذين سقط الخلق عن اعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا انفسهم
وملكوها وقمعوا الشيطان فايس منهم فهؤلاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت في ذلك
ارواحهم فهم اهل نيل الفضل في الامارة والخلافة ومن علم انه ليس كذلك ويخرج من هذه الصفة حرم
عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فراها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولاية ولكن
خاف عليها ان تتغير اذا ذاقت لذة الولاية وان تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الامر فتكره العزل فيداهن
خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء في انه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ام لا فقال قائلون
لا يجب لان هذا خوف امر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه الا قوية في ملازمة الحق وترك
لذات النفس والصحيح ان عليه الاحتراز لان النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت
بالخير جزما لكان يخاف عليها ان تتغير عند الولاية فكيف اذا اظهرت التردد والامتناع عن قبول
الولاية والامتناع عن الولاية اهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل طلاق الرجال
فاذا شرع فيها فلا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه الى المداهنة واهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم ولا يستطيع
النزوع منه الى الموت الا ان يعزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل لكل من احب الولاية ومهما مالت
النفس الى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فذلك امارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
انا لا نولي امرنا من سالنا فاذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف عرفت ان نهي ابي بكر رافعا عن
الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض اما القضاء فهو وان كان دون الخلافة والامارة فهو في
معناهما فان كل ذي ولاية امير اي له امر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع
اتباع الحق والعقاب فيه ايضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة
واحد في الجنة واثنان في النار وقال صلى الله عليه وسلم من استقضي فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم
الامارة ينبغي ان يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليتقلده الاقوياء الذين
لا تاخذهم في الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء الا بمداهنتهم واهمال

بعض المتقدمين لاجلهم ولاجل المتصلفين بهم ابو حيلهم انه ان يحكم عليهم بالحق لم يزل ادام يطيعني فليس
ان يتقلد القضاء ولا يتقلده فيه ان يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل مانعا من تحصيل نية الامتثال
الاصلاح لعزل لسقطت المهابة فينبغي ان يتبع بالعزل ان كان متفرقة فانه لم يسمع منه فهو انما
يتقوى لاتباع الهوى والشيطان فيكفر ويترتب عليه ثوابا ويرمى الظلمة في الدرك الاسفل من النار
ومنها الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الاسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه
ويعظم به القدر وآفته ايضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون
الفتوى وما وجدوا الى ذلك سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من ابواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال
اوسعوا لي وعن بشر [illegible] لا اشتهي ان احدث ولو اشتهيت ان لا
احدث والوعظ [illegible] الناس [illegible] ولذة القبول
لذة فاذا [illegible] ذلك على قلب [illegible] كل كلام [illegible] وان كان باطلا وينفر عن
كل كلام حق ويستثقله العوام وان كان حقا ويصير مصروف الهمة بالكلية الى ما يحرك قلوب العوام
ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة الا ويكون فرحه بها من حيث انها تصلح ان يذكرها على
راس المنبر وكان ينبغي ان يكون فرحه بها من حيث انه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الله
ليعمل بها اولا ثم يقول اذا انعم الله تعالى علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فاقصها لا
[illegible] ما ينطق به الخوف والفتنة فحكمها حكم الولايات فمن لا باعث له
الا طلب الجاه [illegible] الاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي ان يترك ذلك ويخالف الهوى فيه الى
ان يرتاض نفسه ويقوى في الدين همته ويامن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود اليه فان قلت فمهما
حكم بذلك على اهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن طلب الامارة وتوعد عليها حتى قال انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الا من
اخذها بحقها وقال نعمت المرضعة وبئست الفاطمة ومعلوم ان السلطنة والامارة لو تعطلت لبطل
الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الامن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى
عنه مع ذلك وضرب عمر رضي الله عنه ابي بن كعب حين رآى قوما يتبعونه وهو مع ذلك يقول في سيد
المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من ان يتبعوه وقال هذا فتنة للمتبوع ومذلة على التابع وعمر
كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع من ذلك واستأذن عمر رجل ان يعظ الناس اذا فرغ من صلاة
الصبح فمنعه فقال اتمنعني من نصح المسلمين فقال اخشى ان تنتفخ [illegible] الثريا اذ ارى فيه

والرغبة في جاه الوعظ وتولي الاوقاف والقضاء والخلافة ما يحتاج الناس اليها في ذكر وكان الوعظ والتذكير
والفتوى في كل واحد منها فتنة ولذا لا فرق بينها ولتنازل التاركين فيمكن في ذلك ترى في اكثر الخلق
وهو غلط اذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء المرتفع الى مثل القضاء والرياسة وفيها
يضطر الخلق الى طلبها وكذلك حب الرياسة لا تزكيها العلوم تقدس بل يحبس الناس ويفرط بها ولاسيما
ما لا مذاهب عن طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لا اشتراء من الجهد وكبرها الا بما لا اصل لها وقد
سمعنا ما تغافلان بيده هذا الذي بقوم الاخلاق فهم فلا يشتغل بذلك بامر ان الناس فان انها في الايتيهم
فانظر لنفسك ثم انا نرى اهل هذا اذا كان في الجماعة يتزينون بالوعظ مثلا فيستمع الحق عند الطرق لا
استطع بعضهم ولا نعلم ان كلهم لا يشعرون ما اتركوا لمدة الرياسة فان لم يكن في البلد الا هو وكان
يعظ ناس الناس بحسن حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر ويطلب العلم اذا اغار بها وهو يعظ ان
تارك الدنيا ويعرض عنها ولا يمنعه من الوعظ بتركها الشغل بها هذه نفسه فان تقالات القوم على اسى يشتمل
اشتغل بها هذه لانا نعلم انه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم اذ لا قائم بمقر بدار الحق ومقتضيها الا الملك
بعد وصلاح دين الجميع لصبر الناس بصلاح دينه بين من فيصل تداعيهم حتى لا يطمع امر الناس قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم ثم الواعظ حيث انه يرغب في الاخرة
ويزهد في الدنيا بكلامه وظاهر سيرته فاما ما احدثه الوعاظ في هذه الاعصار من الكلمات المزخرفة
والالفاظ المسجعة المقرونة بالاشعار ما ليس فيه تعظيم لامر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية
والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت فيجب اخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان
وانما كلامنا في الواعظ حسن الوعظ الجميل الظاهر جالس في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما
اوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم
وغوائله ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون
وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم ان
تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق اقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك
انتم تخرجون الحكم من افواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الاخرة من لا تنقضي من
الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم جعلتم الدنيا تحت السنتكم
والعمل تحت اقدامكم بحق اقول لكم افسدتم اخرتكم فصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الاخرة فاي الناس
اخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كانكم تدعون

اهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره وجوفه
وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم واجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا
كعبيد اتقياء ولا كاحرار كرام يوشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم
ثم تاخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم الى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم
ثم يجزيكم بسوء اعمالكم وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين
الانس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة واذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل
عار وشين وفي الآخرة هم الاخسرون فان قلت فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ
رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال
ايما داع دعا الى هدى فاتبع عليه كان له اجره واجر من اتبعه الى غير ذلك من فضائل العلم فينبغي ان يقال
للعالم اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ولكن اتمم
العمل وجاهد نفسك فاعلم ان فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والامارة ولا نقول لاحد من عباد الله
اترك العلم اذ ليس في نفس العلم آفة انما الآفة في اظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الاحاديث
ولا نقول له ايضا اتركه ما دام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فاما اذا لم يحركه الا الرياء فترك
الاظهار انفع له واسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها اما اذا خطر
له وساوس الرياء في اثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لان آفة الرياء في العبادات ضعيفة وانما
تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم وبالجملة فالمراتب ثلاثة الاولى الولايات
والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة الثانية الصلاة والصوم والحج والغزو
وقد تعرض لها اقوياء السلف وضعفاؤهم ولم ينقل عنهم الترك لخوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة
فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل لله بادنى قوة الثالثة وهي متوسطة بين الرتبتين وهي
التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها اقل مما في الولايات واكثر مما في
الصلوات فالصلاة ينبغي ان لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغي ان يتركها
الضعفاء راسا دون الاقوياء ومناصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم انه بالولايات
اشبه وان الحذر منه في حق الضعيف اسلم والله اعلم وههنا رتبة رابعة وهي جمع المال واخذه للتفرقة
على المستحقين فان في الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفي ادخال السرور على قلوب الناس
لذة للنفس والآفات فيها ايضا كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم امسك وانما طلب

اعلم ان الرجل قد يبيت في موضع مع القوم فيقومون للتهجد او يقوم بعضهم فيصلون الليل كله او بعضه
وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فاذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده
او يصلي مع انه كان لا يعتادها اصلا وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه اهل الموضع فينبعث نشاطه
في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط فهذا ربما يظن ان هذا رياء وان الواجب ترك الموافقة
وليس كذلك على الاطلاق بل له تفصيل لان كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام
النهار ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات وتستهويه الغفلة
فربما يكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة او تندفع العوائق والاشغال في بعض المواضع
فينبعث النشاط فقد يكون الرجل في منزله فيقطعه الاشتغال والاسباب عن التهجد مثل تمكنه من
النوم على فراش وثير او تمكنه من التمتع بزوجته والمحادثة مع اهله واقاربه والاشتغال باولاده
او مطالعة حساب له مع معامليه فاذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر الرغبة
في الخير وحصلت اسباب باعثة على الخير كمشاهدته اياهم وقد اقبلوا على الله تعالى واعرضوا عن الدنيا
فانه ينظر اليهم فينافسهم ويشق عليه ان يسبقوه بطاعة الله تعالى فيتحرك داعيته للدين لا للرياء
وربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع او بسبب آخر فيغتنم زوال النوم وفي منزله ربما يغلبه النوم
وربما ينضاف اليه انه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد على الدوام وانما تسمح بالتهجد وقتا قليلا
فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه اطايب
الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها فاذا اعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه الصوم فينبعث داعية الدين
للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا سلم منها قوي الباعث فهذا
وامثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونهم معه والشيطان
عند ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزيد على
صلاتك المعتادة وقد يكون رغبته في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل
لا سيما اذا كانوا يظنون به انه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بان يسقط من اعينهم فيريد ان يحفظ
منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك مخلص ولست تصلي لاجلهم بل لله وانما كنت
لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا امر مشتبه الا على
ذوي البصائر فاذا عرف ان المحرك هو الرياء فلا ينبغي ان يزيد على ما كان معتاده ولا ركعة واحدة
لانه يعصي الله تعالى بطلبه محمدة الناس بطاعة الله وان كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة

والمنافسة بسبب عبادتهم قليل او لا وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه انه لو راى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت تسخو نفسه بالصلاة وهم لا يرونه فان سخت بها فليصل فان باعثه الحق وان كان يثقل ذلك على نفسه لو غاب عن اعينهم فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضر كل يوم ويمكن ان يكون ذلك لحب مدحهم ويمكن ان يكون سببه تحرك نشاطه بسبب نشاطهم وزوال الغفلة بسبب اقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس الى حب الحمد فمهما علم ان الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغي ان يترك العمل لما يجده من حب الحمد بل ينبغي ان يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة وكذلك قد يبكي جماعة فينظر اليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يعين على ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق اذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا وذلك محمود وعلامة الصدق فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى ام لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن اعينهم فانما خوفه اذن من ان يقال انه قاسي القلب فينبغي ان يترك التباكي وقال لقمان لابنه يا بني لا ترِ الناس انك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند القرآن او الذكر او بعض مجاري الاحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدة حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والانين ويتحازن وذلك محمود وقد يقترن بذلك الرغبة في دلالته على انه كثير الحزن ليعرف بذلك فان تجردت هذه الداعية فهو الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان اباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه وان قبل ذلك وركن اليه بقلبه حبط اجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله به وقد يكون اصل الانين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور لانها في حكم الابتداء المجرد للرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبق خاطر الرياء فيقبله فيدعو الى زيادة تحزين الصوت او رفع له او حفظ الدمعة على الوجه حتى يبصر بعد ان استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ اثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحي ان يقال انه سقط من غير زوال العقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ليرى انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد

يزيد لعمله فيسقط ملكه عن الخلق وربما يحدث نفسه ان يقال ان حاله غير ثابتة وانما هي كيف ما اتفق

فيستديم الرعشة والارتعاش لئلا يرى ذلك ولم يساو ذلك قد يستحق ولكن يرى لضعفه سرعا

ان يقال لم يكن حقيقة صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم اظهار الشوق والانين ويبكي على غير

رجعا انه يضعف عن القيام وربما يخفي المشي ويترك المطار ليظهر انه ضعيف عن سرعة المشي وهذه

الامور كلها مكيدة الشيطان وخواطر النفس فاذا خطرت فعلاجها ان يتذكر ان الناس لو عرفوا

نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه وان الله مطلع على ضميره وهو له اشد مقتا كما روي

عن الجنيد انه قام فزعق فقام معه شيخ فرأى عليه اثر التكلف فقال يا شيخ القلب وراكعين قوم

فجلس الشيخ وكل ذلك من اعمال المنافقين ومدرجا في الخبر تعوذوا بالله من خشوع النفاق وانما خشوع

النفاق ان تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عقابه

وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة فهذه خواطر

ترد على القلب مترادفة متضادة متفاوتة وهي مع تفاوتها متشابهة فراقب قلبك في كل ما

خطر لك وانظر ما هو ومن اين هو فان كان لله فامضه واحذر مع ذلك ان يكون قد خفي عليك

شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل وكن على وجل من عبادتك اهي مقبولة ام لا لخوفك على الاخلاص

فيها واحذر ان يتجدد لك خاطر الركون الى حمد الناس بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يكثر جدا

فاذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله تعالى عليك ومقته لك وتذكر ما قاله احد الثلاثة نفر الذين حاجوا

ايوب عليه السلام اذ قال لايوب اما علمت ان العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن

نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم اعوذ بك ان يراني الناس اني اخشاك وانت لي ماقت وكان من دعاء الحسين بن علي

عليهما السلام اللهم اني اعوذ بك ان تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما اخلو سريرتي

محافظا على رياء الناس من نفسي ومضيعا لما انت مطلع عليه مني ابدي للناس احسن امري واخفي

اليك سوء عملي تقربا الى الناس بحسناتي وفرارا منهم اليك بسيئاتي فيحل بي مقتك ويجب علي غضبك

اعذني من ذلك يا رب العالمين وقد قال احد الثلاثة نفر لايوب عليه السلام المرضيهم بالعبادات

الذين حفظوا علانيتهم واضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات الى الرحمن تسود وجوههم فهذه

جملة آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر ان للرياء سبعين بابا وقد عرفت ان

بعضه اخفى من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه اخفى من دبيب النمل وكيف يدرك

ما هو اخفى من دبيب النمل الا بشدة التفقد والمراقبة وليت ذلك يدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع

في ادراكه من غير تفقد القلب واعطان للتبني ويخشى من عدمها بيان ما ينبغي للمريد ان يلزم
نفسه قبل العمل وبعده وفيه اعلم ان اول ما ينبغي ان يلتزم المريد قلبه خشية سابقة الخاتمة
وعلم الله تعالى في جميع طاعاته ولا يمنع بصحبها الامن لا يخاف الا الاصل ما من يخاف غيره وبعد ما
يشرع الاطلاع على محاسن اعماله كان يتخذه هذه المرتبة فيلزم قلبه ملكا ماحة ذلك من جهة العقل
بالايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت والرياء فيسمع هذه الطاعات المخفية الشاملة الى ابقيه
عليها لمن يخاف النفس عند ذلك ان تكاد هذه الوجوه على الاخلاص ومن ثم شمل هذا العمل العظيم او
الخوف العظيم او البكاء العظيم لرحمة الخلق مثل نحو ما اكشفا في الخلق من عيبه على شئ لمكث
تزهى بالصفائية فجهل الناس بحالك وبكونك وورك ومعيرون الاقتداء بك فمن مثل هذا الامر خوف
ان تبتلى به فيذكر في مثابة عظيم عند عظيم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوام نعيمها ابد الآبا
وعظيم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته الدنيا من عباده ويعلم ان اطلاعهم غير مجيب اليهم
ومستوجب عند الله ومحبط للعمل العظيم فيقول كيف ابيع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم ملتمزون
لا يستطيعون جعل في رزق ولا اجل فيلتزم ذلك قلبه ولا ينبغي ان يا مرين منه مثل انما تعودوا على الاخلاص
الاولى فاما المخالطون فليس ذلك من شانهم بترك المجاهدة في الاخلاص فالمخالط الى ذلك احوج
من المنقطع لان المنقطع ان فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخالط الاغلب ان يفسد من الفرائض
والحاجة الى الحركات بالنوافل فان لم يسلم عمله ما يخرجها بالنوافض ومعك ينبغي والمخالط الى الاخلاص
احوج وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يحاسب العبد يوم القيامة فان نقص فرضه
قيل انظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع اكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع اخذ بطرفيه فالقي في
النار فياتي المخالط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات
ولا يكون ذلك الا بخلوص النوافل واما المنقطع فجهده في زيادة الدرجات فان حبط تطوعه بقي من
حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذن ينبغي ان يلزم قلبه خوف اطلاع غيره على
علمه الصالح نافلة ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يتحدث به ولا يظهره فاذا فعل جميع ذلك ينبغي
ان يكون وجلا من عمله خائفا ان ضيع اعمالا من الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكا في قبوله
ورده مجوزا ان يكون الله عز وجل قد احصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ويكون
هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده لا في ابتداء العمل بل ينبغي ان يكون متيقنا في
الابتداء انه مخلص لا يريد بعمله الا الله حتى يصح عمله فاذا شرع في العمل ومضت لحظة يمكن فيها

العقد والنيات كان الخوف من الفساد من شائبة خفية احبطت عمله من رياء او عجب او لمي به لكن
يكون رجاؤه اغلب من خوفه لانه استيقن اصل العمل بالاخلاص وشك في انه هل افسده برياء فيكون
رجاؤه اليس لها اغلب ولذلك عظمت لذته في المناجاة والطاعات فالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه لاجل
ذلك الشك جدير بان يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه والذي يتقرب الي الله تعالى
بالسعي في حوائج الناس وافادة العلم ينبغي ان يلزم نفسه رجاء الثواب علي دخول السرور على قلب
من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم فقط دون شكر ومكافاة وحمد وثناء من
المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة او موافقة في
المشي في الطريق ليستكثر باتباعه او ترددا منه في حاجة فقد اخذ اجره فلا ثواب له غيره نعم ان لم يتوقع
هو ذلك ولم يقصد الا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل اجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته
فنرجو ان لا يحبط ذلك اجره اذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده منه لو قطعه ومع هذا فقد
كان العلماء يحذرون ذلك حتى ان بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فادلوا فيه حبلا ليخرجوه فحلف عليهم الا
يقف معهم من قرأ آية من القرآن عليه او سمع منه حديثا خيفة من ان يحبط ذلك اجره قال شقيق البلخي
اهديت الي سفيان الثوري ثوبا فرده علي فقلت له يا ابا عبد الله لست انا ممن يسمع الحديث حتى ترده
علي قال علمت ذلك ولكن اخوك يسمع مني الحديث فاخاف ان يلين قلبي لاخيك اكثر مما يلين لغيره
وجاء رجل الي سفيان ببدرة او ببدرتين وكان ابوه صديقا لسفيان وكان سفيان ياتيه كثيرا
فقال له يا ابا عبد الله في نفسك شيء من ابي فقال يرحم الله اباك كان وكان واثنى عليه فقال يا ابا
عبد الله قد عرفت كيف صار الي هذا المال فاحب ان تاخذ هذه تستعين بها على عيالك قال فقبل
سفيان ذلك منه فلما خرج قال لولده يا مبارك الحقه فرده عليه فرجع فقال احب ان تاخذ مالك فلم
يزل به حتى رده عليه فكانه كانت اخوته مع ابيه في الله فكره ان ياخذ ذلك قال ولده فلما خرج
لم املك نفسي ان جئت اليه فقلت له اي شيء قلبك هذا حجارة عد انه ليس لك عيال اما ترحمني اما
ترحم اخوتك اما ترحم عيالنا فاكثرت عليه فقال يا مبارك تاكلها هنيئا مريئا واسأل عنها انا فاذا
يجب على العالم ان يلزم قلبه طلب الثواب من الله في هداية الناس به فقط ويجب على المتعلم
ان يلزم قلبه طلب حمد الله وثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق وربما يظن انه
له ان يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهذا خطأ لان ارادته غير الله بطاعته
خسران في الحال والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهم علم وذلك لا

جاء بل ينبغي ان يتعلم لله ويتعبد لله ويخدم الخدم لله لا ليكون له في قلبه منزلة ان كان يريد ان يكون
له طاعة فان العباد امروا بان لا يعبدوا الا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك كل من يخدم ابويه
لا ينبغي ان يخدم لطلب المنزلة عندهم الا من حيث ان رضا الله في رضا الوالدين ولا يجوز له ان يرائي
بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط
منزلته من قلوب الوالدين ايضا واما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي ان يلزم قلبه ذكر الله والثقة
به ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر
عليه العبادات في خلوته وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله وهو لا يدري ان ذلك
لخف العمل عليه قال ابرهيم بن ادهم تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته
فقلت يا سمعان منذ كم انت في صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت وما طعامك قال يا حنيفي
وما دعاك الى هذا قلت احببت ان اعلم قال في كل ليلة حمصة قلت فما الذي يهيج من
قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة قال ترى الدير الذي بحذائك قلت نعم قال انهم يأتوني في كل سنة يوما
واحدا فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها
عز تلك الساعة فانا احتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الابد فوقر في قلبي
المعرفة فقال حسبك او ازيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فادلى الي ركوة فيها عشرون
حمصة وقال لي ادخل الدير فقد رأوا ما ادليت اليك فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى فقالوا يا حنيفي
ما الذي ادلى اليك الشيخ قلت من قوته قالوا وما تصنع به ونحن احق به قالوا ساوم قلت عشرين
دينارا فاعطوني عشرين دينارا فرجعت الى الشيخ فقال يا حنيفي ما الذي صنعت قلت بعته منهم
قال بكم قلت بعشرين دينارا قال اخطأت لو ساومتهم بعشرين الف دينار لاعطوك هذا عز من لا تعبده
فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفي اقبل على ربك ودع عنك الذهاب والمجيء والمقصود
ان استشعار النفس عز العظمة في القلب يكون باعثا في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي ان يلزم
نفسه الحذر منه وعلامة سلامته ان يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغير الناس عن
اعتقادهم لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة ان وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله
وايمانه فانه لو كان في عبادة فاطلع الناس عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب
اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل على ضعفه ولكن اذا قدر على رده بكراهة العقل
والايمان وبادر الى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون اليه فيرجى ان لا يخيب سعيه الا ان يزيد عند

مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كيلا ينبسطوا اليه فذلك لا بأس به ولكن فيه خطر اذ النفس
قد تكون شهوتها الخفية في اظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد
الانقباض بصبرك عن الضحك معهم لو علم ان انقباضهم عنه انما يحصل بان يضحك سريعا او يكلم
كثيرا ويضحك فتسمح نفسه بذلك فاذا الخشوع [illegible] الصلاة فينبغي ان يكون حال المترائي
منهم ولا يخلو عن هذا الامر فرق في قلبه اذ ليس في الوجه [illegible] ان يحمل على من لو كان
على وجه الارض [illegible] لكان يعلمه ولا يلتفت قلبه الى الخلق الا [illegible] ضعيف لا يثق عليه ازالتها
فاذا كان كذلكم [illegible] بمشاهدة الخلق من علامة الضعف في ذلك لو كان له صاحبان احدهما
غني والآخر فقير فلا يجد عند اتيان الغني زيادة هزة في نفسه لاكرامه الا اذا كان في الغني زيادة علم
او زيادة ورع فيكون مكرما له لذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استرواحه الى مشاهدة الاغنياء اكثر
فهو مراء او طامع والا فالنظر الى الفقراء يزيد في رغبته الآخرة ويحبب اليه المسكنة والنظر
الى الاغنياء بخلافه فكيف استروح الى الغني اكثر مما استروح الى الفقير وقد حكي ان الاغنياء لم يروا اذل في مجلس
منهم في مجلس الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون انهم فقراء في مجلسه
نعم لك زيادة اكرام الغني اذا كان اقرب اليك او كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون
بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في اكرام وتوقير البتة فان الفقير اكرم على
الله من الغني وايثارك للغني لا يكون الا طمعا ورياء ثم اذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى ان يكون
تظهر الحكمة والخشوع للغني اكثر مما تظهر للفقير وانما يكون ذلك رياء خفيا او طمعا خفيا كما قال ابن السماك
لجارية له مالي اذا اتيت بغداد فتحت الي الحكمة فقالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان
ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد
النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها الا ان تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد
للشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في ايام متناهية
وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد امكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بدنه
سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات وعلم انه لو احتمى وجاهد
شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الاطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الادوية
المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة
الاكل ولكن سقمه كل يوم يزداد نقصانا لشدة احتمائه فمهما نازعته نفسه في شهوة تفكر في توالي

الالام والاوجاع عليه واذا ذكر ليلة الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة اعدائه ومهما اشتد
عليه سر الحق دائما فتكر فيما يستمده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هني ومدة
صحيح وقلب رخي وامر نافذ خف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات فكذلك المؤمن المريد
لملك الآخرة اشتغل عن كل ما يهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزأ منها بالقليل واختار
الذبول والنحول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من ان يحل عليه
غضب الله فيهلكه ورجاء ان ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وايمانه بعاقبة امره
وبما اعد له من النعيم المقيم في رضاء الله ابد الآباد ثم علم ان الله تعالى كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين
لمرضاته عونا وبهم رؤوفا وعليهم عطوفا ولو شاء لاغناهم عن التعب والنصب ولكن اراد ان يبلوهم
ويعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل التعب في بدايته اقبل الله تعالى عليه بالمعونة
والتيسير وحط عنه الاعباء وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة
ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على اماتة الشهوات ويتولى سياسته ويقويه بمعونته
فان الكريم لا يضيع امل الراجي ولا يخيب امل المحب وهو الذي يقول من تقرب الي شبرا تقربت اليه
ذراعا ويقول لقد طال شوق الابرار الى لقائي واني الى لقائهم اشد شوقا فليظهر العبد في البداية

جده وصدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على
القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته
تم كتاب ذم الجاه والرياء بحمد الله وعونه

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع الجبار الذي كل
جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده
دافع الغني الذي ليس له في ملكه شريك ولا منازع القادر الذي بهر أبصار الخلائق بهاؤه وجلاله وقهر
العرش المجيد ... وارتفع عن حد قدرته إحصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله
ملائكته وأنبياؤه وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة
إزاره والكبرياء رداؤه فمن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست أسماؤه
والصلاة على محمد النبي الذي أنزل معه النور المستنير ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه وعلى
آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم كثيرا أما بعد فقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته
وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه والكبر والعجب
داءان مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان وإذا كان
القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب
فإنهما من قبائح المرديات ونحن نستقصي بيانهما من هذا الكتاب في شطرين شطر في الكبر وشطر
في العجب **الشطر الأول من الكتاب في الكبر** وفيه بيان ذم الكبر وبيان ذم الاختيال وبيان
فضل التواضع وبيان حقيقة الكبر وآفته وبيان من يتكبر عليه ودرجات الكبر وبيان ما به التكبر وبيان
البواعث على التكبر وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر التكبر وبيان علاج الكبر وبيان امتحان
النفس في خلق الكبر وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه **بيان ذم الكبر** قد ذم الله تعالى
الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير
الحق وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار
عنيد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر ولا يدخل
النار من كان في قلبه حبة من الإيمان وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء
ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال التقى

عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على المروة فتوقفا فمضى ابن عمرو واقام ابن عمر يبكي فقالوا ما يبكيك يا ابا عبد
الرحمن قال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان في قلبه
مثقال ذرة من خردل من كبر اكبه الله على وجهه في النار وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل
يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين فيصيبه ما اصابهم من العذاب وقال سليمان بن داود عليه السلام
يوما للطير والجن والانس والبهائم اخرجوا فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن فرفع حتى
سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست قدمه البحر فسمع صوتا يقول لو كان في قلب
صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به ابعد مما رفعته وقال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من النار عنق له اذنان
تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها
آخر وبالمصورين وقال عليه السلام لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة وقال النبي صلى الله عليه وسلم
تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة ما لي لا يدخلني الا ضعفاء
الناس وسقطهم وعجزهم فقال الله للجنة انما انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي وقال
للنار انما انت عذابي اعذب بك من اشاء ولكل واحدة منكما ملؤها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال بئس
العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وطغى ونسي المبتدا والمنتهى وعن ثابت
قال بلغنا انه قيل يا رسول الله ما اعظم كبر فلان فقال اليس بعده الموت وقال عبد الله بن عمرو ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال اني آمركما باثنتين وانهاكما
عن اثنتين انهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا اله الا الله فان السموات والارض وما فيهن لو وضعت
في كفة الميزان ووضعت لا اله الا الله في الكفة الاخرى كانت ارجح منها ولو ان السموات والارض وما
فيهن كانت حلقة فوضعت لا اله الا الله عليها لقصمتها وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل
شيء وبها يرزق كل شيء وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا وقال النبي صلى الله عليه وسلم
اهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع واهل الجنة الضعفاء المقلون وقال صلى الله عليه وسلم ان احبكم
الينا واقربكم منا في الآخرة احاسنكم اخلاقا وان ابغضكم الينا وابعدكم منا الثرثارون المتشدقون
المتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون
وقال صلى الله عليه وسلم يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار
ثم يساقون الى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الانيار يسقون من طينة الخبال عصارة اهل النار

وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم
الناس هوانا لهم على الله وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدثني
عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن في جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار
فإياك أن تكون يا بلال ممن يسكنه وقال صلى الله عليه وسلم اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء وقال من
فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول **الآثار** قال
أبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير وقال وهب لما
خلق الله تعالى جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر وكان الأحنف بن قيس يجلس مع
مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف بن قيس فزحمه
بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فيه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين وقال
الحسن العجب لابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات وقد قيل في
وفي أنفسكم أفلا تبصرون هو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن الحسين بن علي عليهما السلام ما دخل
قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر وسئل سلمان عن
السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال الكبر وقال النعمان بن بشير على المنبر إن للشيطان مصالي وفخوخا
وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع
الهوى في غير ذات الله **بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب**
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم بينا رجل يتبختر
في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم
من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر عليه
عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول لا ينظر الله تعالى إلى من جر إزاره خيلاء وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بزق يوما على كفه
ووضع إصبعه عليه وقال يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك
وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت
أتصدق وأنى أوان الصدقة وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس
والروم سلط بعضهم على بعض قال ابن الأعرابي هي مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم من تعظم
في نفسه واختال في مشيته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان **الآثار** عن أبي بكر الهذلي قال

ويقال خرج الحسن اذ مر على ابن الاهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على
ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال اف اف شامخ بانفه ثاني عطفه
مصعر خده ينظر في عطفيه اي حميق ينظر في عطفيه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بامر
الله فيها ولا المؤدي حق الله منها والله ان يمشي احدهم طبيعته ان يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من
اعضائه لله نعمة وللشيطان به لعنة فسمع ابن الاهتم فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الي وتب الى ربك
اما سمعت قول الله تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ومر بالحسن
شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله كان القبر قد وارى بدنك وكانك قد
لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله الى العباد صلاح قلوبهم وروي ان عمر بن عبد العزيز
حج قبل ان يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال
ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه
المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه فقال اتدري من انت اما امك فاشتريتها
بمائتي درهم واما ابوك فلا اكثر الله في المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا
كررها مرتين او ثلاثا وروي ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة
خز فقال يا ابا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب اما تعرفني فقال بلى
اعرفك اولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت بين جنبيك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته
تلك وقال مجاهد في قوله ثم ذهب الى اهله يتمطى اي يتبختر وقد ذكرنا ذم الكبر والاختيال
فنذكر فضل التواضع بيان فضيلة التواضع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله عبدا بعفو
الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله وقال صلى الله عليه وسلم ما من احد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه
فان هو رفع نفسه جبذاه ثم قالا اللهم ضعه وان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم
طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وانفق مالا جمعه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط
اهل الفقه والحكمة وعن ابي سلمة المديني عن ابيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا
بقبا وكان صائما فاتيناه عند افطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه
وجد حلاوة العسل فقال ما هذا قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال اما
اني لا احرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله ومن
اكثر ذكر الله احبه الله وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في نفر من اصحابه في بيته ياكلون فقام سائل

على الباب ويبرز مائة ويكون منها فانتثت لقمة فدخل اخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعد ثم قال الخصم
وكانت يطلعن قريشا شان بينه وكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت يرزق مانه منها قال عليه السلم
خيرني ربي بين ان اكون عبدا رسولا او ملكا نبيا ثم اوما اليما اخا وكان صفي من الملائكة جبريل
فرفعت راسي فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا واوحى الله تعالى الى موسى بن عمران عليه السلم
انما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي والزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكف
نفسه عن الشهوات من اجلي وقال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى وقال
عيسى عليه السلم طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيمة طوبى للمصلحين بين
الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيمة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون
الى الله تعالى يوم القيمة وقال بعضهم بلغني ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن
صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله وقال صلى الله عليه وسلم
اربع لا يعطيهن الله الا من يحب الصمت وهو اول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا
وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وقال
صلى الله عليه وسلم ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله وروي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يطعم فجاء اسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس الى احد الا قام من جنبه فاجلسه
النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه وقال انه ليعجبني ان يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لاهله
يدفع به الكبر عن نفسه وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه مالي لا ارى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما
حلاوة العبادة قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم
واذا رايتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار وفي الآثار كان عمر يقول ان
العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش نعشك الله واذا تكبر وعدا طوره رهصه الله الى الارض
وقال المتوكل كان هو في نفسه كبير وفي اعين الناس حقير حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير
وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة الى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس
النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال
يا جرير تواضع لله في الدنيا فانه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيمة يا جرير اتدري ما ظلمة
النار يوم القيمة قلت لا قال فانه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا وقالت عائشة رضي الله عنها
انكم لتغفلون عن افضل العبادة التواضع وقال يوسف بن اسباط يجزي قليل الورع من كثير العمل

ويجري عليك التواضع من كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع هو ان تخضع للحق وتنقاد
له ولو سمعته من صبي قبلته منه ولو سمعته من اجهل الناس قبلته وقال ابن المبارك راس
التواضع ان تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه انه ليس لك بدنياك عليه فضلا
وان ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضلا وقال قتادة
من اعطي مالا او جمالا او ثيابا او علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل اوحى الله
الى عيسى عليه السلام اذا انعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة اتممها عليك وقال كعب ما
انعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله الا اعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع
له بها درجة في الآخرة وما انعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله الا
منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه ان شاء او يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن
مروان اي الرجال افضل قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة ودخل
ابن السماك على هرون الرشيد فقال يا امير المؤمنين ان من اتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في
حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى في ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله
تعالى من خالص اولياء الله فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده وكان سليمان بن داود عليه
السلام اذا اصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء الى المساكين فيقعد معهم ويقول
مسكين مع مساكين وقال بعضهم كما تكره ان يراك الاغنياء في الثياب الدون فكذلك
الفقراء في الثياب الرفيعة ويروي انه خرج يونس وايوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم
الحسن اتدرون ما التواضع التواضع ان تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما الا رايت له عليك فضلا
وقال مجاهد ان الله تعالى لما اغرق قوم نوح شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودي فرفعه الله
تعالى فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال ابو سليمان ان الله عز وجل اطلع على قلوب
الادميين فلم يجد قلبا اشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه منهم بالكلام وقال
يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم اشك في الرحمة لولا اني كنت معهم اني اخشى انهم حرموا بسببي
وقال ارفع ما يكون المؤمن عند الله اوضع ما يكون عند نفسه واوضع ما يكون عند الله تعالى ارفع
ما يكون عند نفسه وقال زياد النمري الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر وقال مالك بن دينار لو
ان مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان احد يسبقني الى الباب الا رجل بفضل
قوة او سعي قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا وقال الفضيل من احب الرياسة

لم يرفع ابدا وقال موسى بن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمرا فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت يا
ابا عبد الله انت امامنا فادع الله لنا فبكى ثم قال ليتني لم اكن سبب هلاككم قال فرايت النبي صلعم
في النوم فقال ان الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل الى الشبلي فقال له ما انت
وكان هذا دابه وعادته فقال انا النقطة التي تحت البا فقال له الشبلي ابادك الله شاهدك
او تجعل لنفسك مكانا وقال الشبلي في بعض كلامه ذلي عطل ذل اليهود من راى لنفسه قيمة
فليس له من التواضع نصيب وعن الفتح بن شخرف قال رايت علي بن ابي طالب رضه في المنام فقلت
يا ابا الحسن عظني فقال ما احسن التواضع بالاغنيا في مجالس الفقرا رغبة منهم في ثواب الله
واحسن من ذلك تيه الفقرا على الاغنيا ثقة منهم بالله تعالى وقال ابو سليمان لا يتواضع
العبد حتى يعرف نفسه وقال ابو يزيد ما دام العبد يظن ان في الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل
متى يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه عز وجل
ومعرفته بنفسه وقال ابو سليمان لو اجتمع الخلق على ان يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا
عليه وقال عروة بن الورد التواضع احد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع
وقال يحيى بن خالد البرمكي الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ
التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع وقيل التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الاغنيا
احسن والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقرا اقبح وقيل لا عز الا لمن تذلل لله عز وجل ولا رفعة
الا لمن تواضع لله عز وجل ولا امن الا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح الا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل
وقال ابو علي الجوزجاني النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن اراد الله هلاكه منع منه
التواضع والنصيحة والقناعة واذا اراد الله تعالى به خيرا فاذا هاجت في نفسه نار الكبر ادركها التواضع
مع نصرة الله تعالى واذا هاجت نار الحسد ادركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل واذا هاجت في
نفسه نار الحرص ادركتها القناعة مع عون الله عز وجل وعن الجنيد انه كان يقول يوم الجمعة
في مجلسه لولا انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يكون في آخر الزمان زعيم القوم ارذلهم
ما تكلمت عليكم وقال الجنيد التواضع عند اهل التوحيد تكبر ولعل مراده ان المتواضع يثبت نفسه
ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها او يرفعها وعن عمرو بن شيبة قال
كنت بمكة بين الصفا والمروة فرايت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان واذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت
بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فاذا انا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت انظر

اليه والله فقال يا مالك انظر الي فقلت له شبهتك برجل رأيت صفته ووصفت له الصفة فقال انا ذلك الرجل فقلت ما فعل الله بك فقال اني رفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني اذ رفعت يتواضع فيه الناس وقال المغيرة كانا نهاب ابراهيم النخعي هيبة الامير وكان يقول ان زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلمي اذا سمع صوت الرعد قام وقعد واخذه بطنه كانه امرأة ماخض ويقول هذا من اجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس وكان بشر الحافي يقول سلموا على ابناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال اعطاك الله ما ترجوه فقال ان الرجاء يكون بعد المعرفة فاين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكني خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فان ثقل فاني كريم وان خف فانا لئيم وقال ابو بكر رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع بيان حقيقة الكبر وآفته اعلم ان الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو اعمال تصدر من الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن احق واما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور ان يكون معجبا ولا يتصور ان يكون متكبرا الا مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفي ان يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره اعظم من نفسه او مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي ان يستحقر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه احقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي ان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاث يحصل فيه خلق الكبر لا ان هذه الرؤية هي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى المعتقد هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اعوذ بك من نفخة الكبرياء ولذلك قال عمر رضي الله عنه اخشى ان تنتفخ حتى تبلغ الثريا اذ استأذنه ان يعظ بعد صلاة الصبح فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى ايضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن

عبادتي وقوله تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة
ثم هذه العزة تقتضي اعمالا في الظاهر والباطن هي ثمراته ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره
بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه واقصاه عن نفسه وابعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته
ورأى ان حقه ان يقوم ماثلا بين يديه والاحترام حيث كان وذلك دون ذلك فيانف ان يساويه
ويتقدم عليه في مضايق الطرق ويرتفع عليه في المجالس وينتظر ان يبدأه بالكلام وان سبق
تمنى في قضاء حوائجه ويعجب منه وان حاج او ناظر انف ان يرد عليه وان وعظ استنكف من
القبول وان وعظ عنف في النصح وان رد عليه شيء من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين
واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة كانه ينظر الى الحمير استجهالا لهم
واستحقارا والاعمال الصادرة من خلق الكبر كثيرة وهي اكثر من ان تحصى فلا حاجة الى احصائها
فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق وقل
ما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الناس وكيف لا تعظم آفته وقد قال
عليه السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر وانما صار حجابا عن الجنة لانه يحول بين
العبد وبين اخلاق المؤمنين كلها وتلك الاخلاق هي ابواب الجنة والكبر وعز النفس يغلق تلك
الابواب كلها لانه لا يقدر على ان يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ولا يقدر على
التواضع وهو راس اخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر على
ان يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب
وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر
على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ولا معنى
للتطويل فما من خلق ذميم الا وصاحب الكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود الا
وهو عاجز عنه خوفا من ان يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه
والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة وشر انواع الكبر ما يمنع من
استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم المتكبرين قال
الله تعالى ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم اخبر ان اشد اهل النار
عذابا اشدهم عتيا على الله فقال تعالى ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا
وقال تعالى والذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال تعالى

استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي
سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق
قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم
عن الملكوت قال ابن جريج سأصرفهم عن ان يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام
ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل
في قلب المتكبر الا ترون انه من شمخ براسه الى السقف شجه ومن طاطا اظله واكنه وهذا
مثل ضربه للمتكبرين وانهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود
الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال من سفه الحق وغمص الناس بيان
المتكبر عليه واقسامه ودرجاته وثمرات الكبر فيه اعلم ان المتكبر عليه هو الله او رسله او
سائر الخلق وقد خلق الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة على الخالق فاذن
الكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة اقسام القسم الاول التكبر على الله تعالى وذلك هو
افحش انواع الكبر ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانه
كان يحدث نفسه بان يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى
عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال انا ربكم الاعلى اذ استنكف
ان يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم
داخرين وقال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف
عن عبادته ويستكبر الآية وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد
لما تامرنا وزادهم نفورا القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها
عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة
الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه
نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله تعالى عن قولهم انؤمن لبشرين مثلنا
ان انتم الا بشر مثلنا ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون وقالوا لولا انزل علينا الملائكة
او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وقالوا لولا انزل عليه ملك وقال فرعون او جاء معه الملائكة
مقترنين قال الله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا
قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حتى اشاور هامان

فقال بل انت رب عبدا او ربت عبدا صده فاستنكف من عبودية الله ومن اتباع موسى عليه
وقالت قريش لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال قتادة الوليد بن المغيرة
وابو مسعود الثقفي طلبوا من هو اعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم اذ قالوا غلام
يتيم كيف بعثه الله تعالى الينا فقال تعالى اهم يقسمون رحمة ربك وقال تعالى اهؤلاء من الله
عليهم من بيننا اي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش كيف نجلس عندك
وعندك هؤلاء اشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم باعينهم وتكبروا عن مجالستهم فانزل الله
ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ثم اخبر عن تعجبهم
من حين دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم
من الاشرار قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر
عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف
قال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا
وهذا الكبر قريب من التكبر على الله وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول امر الله والتواضع لرسوله

القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بان يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتابى نفسه
عن الانقياد لهم وتدعوه الى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويانف من مساواتهم وهذا وان
كان دون الاول والثاني فهو ايضا عظيم من وجهين احدهما ان الكبر والعز والعظمة والعلاء
لا يليق الا بالملك القادر فاما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن اين
يليق به الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله ان ياخذ
الغلام قلنسوة الملك فيضعها على راسه ويجلس على سريره فما اعظم استحقاقه للمقت وما اعظم
تهدفه للنكال والخزي وما اشد استجراءه على مولاه وما اقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة
بقوله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته اي انه خاص صفتي ولا يليق
الا بي والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي واذا كان الكبر على عباده لا يليق الا به فمن
تكبر على عباده فقد جنى عليه اذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم
حق الملك ان يستاثر به منهم فهو منازع له في بعض امره وان لم يبلغ درجته درجة من اراد
الجلوس على سريره والاستبداد بملكه والخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر
على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون

ما هو الفرق بين منازعته الملك في استعباد بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك
الوجه الثاني الذي يعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن المتكبر إذا سمع
الحق من عبد من عباد الله تعالى استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين في مسائل
الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق
على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك
من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم
في هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى وإذا قيل له اتق الله أخذته
العزة بالإثم وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف
فقتل فقام آخر فقال يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فقتل المتكبر الذي خالفه
والذي أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال صلى
الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك فقال لا أستطيع فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه
إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده فإذا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر
على أمر الله تعالى وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال أنا خير منه
وهذا الكبر بالنسب لأنه قال خلقتني من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود
الذي أمره الله تعالى وكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد فكان مبدأه الكبر على آدم والحسد له
فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول
الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله إني
امرؤ حبب إلي من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص
الناس وفي حديث آخر من سفه الحق وقوله غمص الناس أي ازدراهم واستحقرهم وهم
عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى وسفه الحق هو رده وهي الآفة الثانية فكل
من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو
يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع له بطاعته واتباع
رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله ورسله **بيان ما به التكبر** اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم
نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ومجامع ذلك يرجع إلى كمال ديني

او دنياوي، والديني هو العلم والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار
فهذه سبعة اسباب السبب الاول العلم وما اسرع الكبر الى العلماء ولذلك قال عليه السلام
آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم ان يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم
نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره الى البهائم ويستجهلهم ويتوقع ان يبدأوه بالسلام فان
بدأ احدا منهم بالسلام او رد عليه ببشر او قام له او اجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويدا
عليه يلزمه شكرها واعتقد انه اكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وانه ينبغي ان يرقوا
له ويخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب انهم يبرونه ويزورونه ولا يزورهم ويعودونه ولا
يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه فان قصر فيه استنكره كأنهم
عبيده او اجراؤه وكأن تعليمه العلم صنيعة منه لديه ومعروف اليه واستحقاق حق عليهم هذا
فيما يتعلق بالدنيا اما في امر الآخرة فتكبره عليهم بان يرى نفسه عند الله اعلى وافضل منهم فيخاف
عليهم اكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم وهذا بان يسمى جاهلا اولى من
ان يسمى عالما بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف به الانسان نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله
تعالى على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذا العلم
يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ويقتضي ان يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره
في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال ابو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال فان قلت
فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وامنا فاعلم ان له سببين احدهما ان يكون اشتغاله بما يسمى
علما وليس بعلم حقيقي وانما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد نفسه وربه وخطره في لقاء الله والحجاب
منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والامن قال الله انما يخشى الله من عباده العلماء فاما
ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات
فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا وهذه بان تسمى صناعات اولى من ان تسمى علوما
بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذا يورث التواضع غالبا السبب الثاني
ان يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الخلق فانه لم يشتغل اولا بتهذيب
نفسه وتزكية قلبه بانواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض
في العلم اي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره وقد
ضرب وهب رحمه الله عليه لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الاشجار

يروحها فتحوله على قدر طعمها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة وكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر
هممها واهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لان من كان همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر
به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع جهله فاذا ازداد علما علم ان الحجة قد تأكدت عليه فازداد خوفا
واشفاقا وذلا وتواضعا والعلم من اعظم ما يتكبر به ولاجل ذلك قال الله تعالى لنبيه عليه السلام واخفض
جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ووصف اولياءه
فقال تعالى اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس
يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن اعلم منا ثم التفت الى
اصحابه فقال اولئك منكم ايها الامة اولئك هم وقود النار ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء
فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فابى ان يأذن له وقال
انه الذبح واستأذنه رجل كان امام قوم انه اذا سلم من صلاته ذكرهم فقال اني اخاف ان تنتفخ
فتبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم قال لتلتمسن اماما غيري او لتصلن وحدانا فاني رايت
في نفسي انه ليس في القوم افضل مني فاذا كان مثله لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري
هذه الامة فما اعز على بسيط الارض عالما يستحق ان يقال له عالم ثم انه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه
فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي ان يفارق بل يكون النظر اليه عبادة فضلا عن الاستفادة
من انفاسه واحواله ولو عرفنا ذلك ولو في اقصى الصين لسعينا اليه رجاء ان يشملنا بركته
وتسري الينا سيرته وسجيته وهيهات فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم ارباب الاقبال والحظ
الاول وقد انقرضوا في القرن الاول ومن يليهم بل يعز في زماننا عالم لم يختلج في نفسه الاسف
والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك ايضا اما معدوم واما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقوله سيأتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما انتم عليه نجا لكان جديرا بان يقتحم
والعياذ بالله ورطة الياس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء اعمالنا ومن لنا ايضا بالتمسك بعشر
ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشيره فنسأل الله تعالى ان يعاملنا بما هو اهله وان يستر علينا
قبائح اعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله الثاني العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة
قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا اما الدنيا فهو انهم يرون غيرهم
بزيارتهم اولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع
لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ الى جميع ما ذكرناه في حق

العلماء وكانهم يرون عبادتهم منة على الخلق وانما في الدين فهو ان يري الناس هالكين ويري نفسه ناجيا
وهو الهالك تحقيقا مهما راي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو اهلكهم
وانما قال ذلك لان هذا القول يدل على انه مزدري بخلق الله مغتر بالله امن من مكره غير خائف من
سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفي بالمرء شرا ان يحقر
اخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه
لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون الى الله بالدنو منه وهو يتمقت الى الله بالتنزه
والتباعد منهم كانه مترفع عن مجالستهم فما اجدرهم اذا احبوه لصلاحه ان ينقلهم الله الى درجته في
العمل وما اجدره اذا ازدراهم بعينه ان ينقله الله الى حد الاهمال كما روي ان رجلا في بني اسرائيل
يقال له خليع بني اسرائيل لكثرة فساده مر برجل يقال له عابد بني اسرائيل وكان على راس العابد غمامة
تظله فلما مر الخليع به قال الخليع في نفسه انا خليع بني اسرائيل وهذا عابد بني اسرائيل فلو جلست
اليه لعل الله يرحمني فجلس اليه فقال العابد انا عابد بني اسرائيل وهذا خليع بني اسرائيل كيف يجلس الي
فانف به وقال له قم عني فاوحى الله الى نبي ذلك الزمان مرهما فليستانفا العمل فقد غفرت للخليع واحبطت
عمل العابد وفي الحديث الاخر فتحولت الغمامة الى راس الخليع وهذا يعرفك ان الله تعالى انما يريد من العبيد
قلوبهم فالجاهل العاصي اذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد اطاع الله بقلبه فهو اطوع لله من
العالم المتكبر والعابد المعجب وكذلك روي ان رجلا في بني اسرائيل اتى عابدا من بني اسرائيل فوطئ
على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فاوحى الله اليه ايها المتالي علي بل انت لا
يغفر الله لك ولذلك قال الحسن حتى ان صاحب الصوف اشد كبرا من صاحب المطرف الخز
اي ان صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويري الفضل له وصاحب الصوف يري الفضل لنفسه وهذه
الافات ايضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو انه لو استخف به مستخف او اذاه موذ استبعد ان يغفر الله له
ولا يشك في انه صار ممقوتا عند الله ولو اذى مسلما اخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه
عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر واغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم الى ان
يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه واذا اصيب بنكبة زعم ان ذلك من كراماته وان الله ما اراد به
الا شفاء غليله والانتقام له منه مع انه يري طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة قتلوا
الانبياء صلوات الله عليهم فمنهم من ضربهم ومنهم من قتلهم ثم ان الله تعالى امهل اكثرهم ولم يعاقبهم
في الدنيا بل ربما اسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا والاخرة ثم ان الجاهل المغرور يظن انه

اكرم على الله من انبيائه وانه قد استحق له ما لم يستحقه لانبيائه وهو في مقت الله باعجابه وكم من
قائل من هلاك نفسه نعوذ بالله منه الخرب واما الاكياس من العباد فيقولون ما كان يقول عطا
السلمي حين كانت تهب ريح او صاعقة ما يصيب الناس الا بسببي ولو مات عطا لتخلصوا وما قاله الآخر
بعد انصرافه من عرفات كنت ارجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا
يتقي الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر من الريا والكبر والحسد
والغل ما هو ضحكة للشيطان ثم انه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما انه فوق احد من عباد الله
فقد احبط بجهله جميع عمله فان الجهل افحش المعاصي واعظم شي يبعد العبد عن الله حكمه لنفسه
بانه خير من غيره بجهل محض وامن من مكر الله تعالى ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك
روي ان رجلا ذكر بخير للنبي عليه السلام فاقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال
عليه السلام اني ارى في وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبي واصحابه فقال النبي
عليه السلام اسئلك بالله حدثتك نفسك ان ليس في القوم افضل منك قال اللهم نعم فراى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها احد من
العباد الا من عصمه الله تعالى لكن العلما والعباد في آفة الكبر على ثلث درجات الدرجة الاولى
ان يكون الكبر مستقرا في قلبه يرى نفسه خيرا من غيره الا انه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى
غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع اغصانها بالكلية الثانية ان يظهر ذلك
من افعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الاقران واظهار الانكار على من يقصر في حقه وادنا
ذلك في العالم ان يصعر خده للناس كانه معرض عنهم او غضبان عليهم وفي العابد ان يعبس وجهه
ويقطب جبينه كانه متنزه عن الناس مستقذر لهم او غضبان عليهم وليس يعلم المسكين ان الورع ليس
في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطاطا ولا في
الذيل حتى يضم انما الورع في القلب قال النبي صلى الله عليه وسلم انما الورع ههنا فقد كان رسول الله اكرم
الخلق واتقاهم وكان اوسعهم خلقا واكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبني من القرا كل طلق مضحاك فاما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس
يمن عليك بعمله فلا اكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله يرضى بذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وهؤلا الذين يظهر اثر الكبر على شمائلهم فحالهم اخف من
حال من هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة

ويحكي المنقش حكايات الأحوال والمقامات وأظهر لغلبة الخوف في العلم والعمل ما ألف به فإنه يقول
في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني
على نفسه ويقول إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام بالليل وأختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر
القراءة وما يجري مجراه وقد يزكي نفسه ضمنا فيقول قصدني فلان بسوء فهلك ولده أو أخذ ماله أو مرض
أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه وأما المباهاة فهو أن يقول لو وقع مع قوم يصلون بالليل
قام وصلى أكثر مما كان يصلي وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم
قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله تعالى
وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا
وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه
وأما المباهاة فهو أن يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل
علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم
الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها
حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه
ويسوءه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه فهذه كلها أخلاق الكبر وآثاره
التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعري من
عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
حبة من كبر كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره وهو من أهل النار بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
وإنما العظيم من خلا عن هذه ومن خلا عنها لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم
أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا
ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العلم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا
هو التكبر بالعلم والعمل الثالث التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك
النسب وإن كان أرفع منه علما وعملا وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف
عن مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من
أنت ومن أبوك فأنا فلان بن فلان وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ومع مثلي تتكلم وما يجري
مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا إلا أنه قد لا يترشح

عند احتمال الاحوال فان غلب عليه غضب اطفا ذلك نور بصيرته ويترشح منه كما روي عن ابي ذر انه قال قاولت
رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السودا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا ذر طف الصاع
طف الصاع ليس لابن البيضا على ابن السودا فضل قال ابو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطا على خدي
فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه راى لنفسه فضلا لكونه ابن بيضا وان ذلك خطا
وجهل وانظر كيف تاب وكيف قلع من نفسه شجرة الكبر باخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف ان العز
لا يقمعه الا الذل ومن ذلك ما روي ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال احدهما
للآخر انا فلان بن فلان فمن انت لا ام لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى
عليه الصلاة والسلام فقال احدهما انا فلان بن فلان حتى عد تسعة فاوحى الله تعالى الى موسى
عليه السلام قل للذي افتخر بآبائه التسعة بل التسعة من اهل النار وانت عاشرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليدعن قوما الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما في جهنم او ليكونن اهون على الله تعالى من الجعلان
التي تدوف بآنافها القذرة الرابع التفاخر بالجمال وذلك يجري اكثره بين النسا ويدعو ذلك
الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها
انها قالت دخلت امراة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا اي انها قصيرة فقال
النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها وهذا منشاه خفي الكبر لانها لو كانت ايضا قصيرة لما ذكرتها
بالقصر فكانها اعجبت بقامتها واستقصرت المراة في جنب نفسها فقالت ما قالت الخامس
الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في خزاينهم وبين التجار في بضايعهم وبين الدهاقين في
اراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له
انت مكدي ومسكين وانا لو اردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن انت وما
معك واثاث بيتي يساوي اكثر من جميع مالك وانا انفق في اليوم ما لا تاكله في السنة وكل ذلك
لاستعظامه الغنا واستحقاره الفقر وكل ذلك جهل منه بآفة الغنا وفضيلة الفقر واليه
الاشارة بقوله تعالى فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا حتى اجابه فقال
ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربي ان يوتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من
السما فتصبح صعيدا زلقا او يصبح ماوها غورا فلن تستطيع له طلبا وكان ذلك منه تكبرا
بالمال والولد ثم بين الله عاقبة امره بقوله يا ليتني لم اشرك بربي احدا ومن ذلك تكبر قارون اذ
قال تعالى فخرج على قومه في زينته حتى قال قوم يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم

السادس التكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على اهل الضعف السابع التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة
والغلمان والعشيرة والاقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود والمكاثرة بالمستفيدين
وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين وبالجملة فكل ما هو نعمة وامكن ان يعتقد كمالا وان لم يكن في نفسه
كمالا امكن ان يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على اقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين لانه
يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان
والغلمان ويتكبر به لظنه ان ذلك كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم
على بعض فيتكبر من يدلي بشي منه على من لا يدلي به او على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده وربما
كان مثله او فوقه عند الله كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو اعلم منه لظنه انه الاعلم ولحسن
الاعتقاد في نفسه بيان البواعث على التكبر واسبابه المهيجة له اعلم ان الكبر
خلق باطن واما ما يظهر من الاخلاق والافعال فهي ثمرتها ونتيجتها وينبغي ان يسمى تكبرا
ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير
وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب كما سياتي معناه فانه اذا اعجب بنفسه وبعلمه
او بشي من اسبابه استعظم نفسه وتكبر واما الكبر الظاهر فاسبابه ثلاثة سبب في المتكبر
وسبب في المتكبر عليه وسبب يتعلق بغيرهما اما السبب الذي في المتكبر فهو العجب والذي
يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا
الاعتبار اربعة العجب والحقد والحسد والرياء اما العجب فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن
والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الاعمال والاقوال والاحوال واما الحقد فانه قد يحمل على التكبر
من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى انه مثله او فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فاورثه
الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان
عنده مستحقا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه النفس على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه
وبغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى ان يجتهد
في التقدم عليه وان علم انه لا يستحق ذلك وعلى الاستحلال وان ظلمه ولا يعتذر اليه وان جنى عليه
ولا يسأله عما هو جاهل به واما الحسد فانه ايضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته
ايذا وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد ايضا الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصح
وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه ان

يستفيد من الحديث من اصل بلده او اقاربه حسدا او بغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع علمه بانه يستحق التواضع لفضله وعلمه ولكن الحسد يبعثه على ان يعامله باخلاق المتكبرين وان كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه واما الرياء فهو ايضا يدعو الى اخلاق المتكبرين حتى ان الرجل ليناظر من يعلم انه افضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا تحاسد ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من ان يقول الناس انه افضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه واما الذي يتكبر بالعجب او الحسد او الحقد فانه يتكبر ايضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك من ينتمي الى نسب شريف كاذبا وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بانه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بانه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على افعال المتكبرين وكان اسم المتكبر انما يطلق في الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاحتقار وهو ان سمي متكبرا فلاجل التشبه بافعال الكبر بيان اخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه اثر التواضع والتكبر اعلم ان الكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزرا واطراقه راسه وجلوسه متربعا او متكئا وفي اقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الايراد ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وفي حركاته وسكناته وفي تعاطيه لافعاله وفي سائر تقلباته في احواله واعماله فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له او بين يديه وقد قال علي رضي الله عنه من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام وقال انس لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك ومنها ان لا يمشي الا ومعه غيره يمشي خلفه قال ابو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال ما يبقي هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاوقات يمشي مع الاصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم اما لتعليم غيره او لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما اخرج الثوب الجديد في الصلاة وابدله بالخليع لاحد هذين المعنيين ومنها ان لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته

خير الخير في الذنب وهو منتها التواضع وروي ان سفين الثوري قدم الرملة فبعث ابرهيم بن ادهم ان
تعال فحدثنا فجاء سفيان فقيل له يا ابا اسحق تبعث اليه بمثل هذا فقال اردت ان انظر
كيف تواضعه ومنها ان يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا ان يجلس بين يديه والتواضع
خلافه قال ابن وهب جلست الي عبد العزيز بن ابي رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فاخذ
ثيابي فجرني الي نفسه وقال لي لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة واني لا اعرف منكم رجلا
شرا مني وقال انس كانت الوليدة من ولايد المدينة تاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع
يده منها حتى تذهب به حيث شات ومنها ان يتوقى مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنه
وهو كبر ودخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده اصحابه ياكلون
فما جلس عنده احد الا قام من جنبه فاجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم الي جنبه وكان عبد الله بن
عمر لا يحبس عن طعامه مجذوما ولا ابرص ولا مبتلى الا اقعدهم على مائدته ومنها ان لا يتعاطى
بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه وروي ان عمر بن عبد العزيز اتاه ليلة ضيف وكان يكتب
فكاد السراج يطفى فقال الضيف اقوم الي المصباح فاصلحه فقال ليس من كرم الرجل ان يستخدم
ضيفه قال فانبه الغلام قال هي اول نومة نامها فقام واخذ البطة وملا المصباح زيتا فقال له
الضيف قمت انت بنفسك يا امير المومنين فقال ذهبت وانا عمر ورجعت وانا عمر وخير الناس
من كان عند الله متواضعا ومنها ان لا ياخذ متاعه ويحمله الي بيته وهو خلاف عادة المتواضعين
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال علي كرم الله وجهه لا ينقص الرجل من كماله
ما حمل من شي الي عياله وكان ابو عبيدة بن الجراح وهو امير يحمل سطلا له من خشب الي الحمام
وقال ثابت بن ابي مالك رايت ابا هريرة اقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة
لمروان فقال اوسع الطريق للامير يا ابن ابي مالك وعن الاصبغ بن نباتة قال كاني انظر الي عمر
معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم
رايت عليا اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له احمل عنك يا امير المومنين قال لا ابو العيال
احق ان يحمل ومنها اللباس اذ يظهر التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم البذاذة
من الايمان قال هرون سالت معنا عن البذاذة قال هو الدون من اللباس وقال وهب رايت
عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج الي السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه اربعة عشر رقعة
بعضها من ادم وعوتب علي رضي الله عنه في ازار مرقع فقال يقتدي به المومن ويخشع له القلب

وقال عيسى عليه السلم جودة الثياب خيلاء القلب وقال طاوس إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر
قلبي ما داما نقيين ويروى أن عمر بن عبد العزيز كان قبل أن يستخلف يشترى له الحلة بألف
دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول
ما أجوده لولا لينه فقيل له أين لباسك ومركبك ومعطرك فقال إن لي نفسا تواقة ذواقة وإنها لم
تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت
إلى ما عند الله عز وجل وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه
قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك
فلو لبست فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو
عند القدرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله
وابتغاء وجهه كان حقا على الله أن يدخر له عبقري الجنة فإن قلت فقد قال عيسى عليه السلم
جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال بالثياب هل هو
من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم أن الثوب
الجيد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال وهو الذي أشار إليه رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال
إني امرؤ حبب إلي الجمال فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فإنه ليس من
ضرورته أن يكون ذلك من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من
التواضع وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف يكون
وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في ستور داره فذلك ليس من
الكبر فإذا انقسمت الأحوال تنزل قول عيسى عليه السلم على بعض الأحوال على أن قوله خيلاء
القلب يعني قد تورث خيلاء في القلب يعني قد تكون منشأ الخيلاء في القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم
إنه ليس من الكبر يعني أن الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر وبالجملة
فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط في اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا
بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب
أن يرى أثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله المزني البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية
وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلم ما لكم تأتوني

ومطيكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية
ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه فذلك هو الأصل وقد أوردنا ما نقل عن
السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد وبالجملة فجماع حسن الأخلاق والتواضع
سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ينبغي أن يقتدى به ومنه ينبغي أن يتعلم وقد قال أبو سلمة
قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال
يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة
فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته
كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب
ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده
أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ويسلم مبتدئا
على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله
وحلة لمخرجه لا يستحيي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد
إلا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل
المعاشرة طلق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في
غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من
شبع ولم يمد يده إلى طمع قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بما قال لي أبو سعيد
فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم
يبث إلى أحد شكوى وكانت الفاقة أحب إليه من اليسار والغنى وإن كان ليظل جائعا يلتوي
ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتيه كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها
من مشارقها ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول
نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولي
العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم
وأجزل ثوابهم فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إلي من أن
ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي قالت عائشة فوالله ما
استكمل جمعة حتى قبضه الله تعالى صلى الله عليه وسلم مع ما نقل من أحواله فجمع جملة أخلاق المتواضعين

من طلب التواضع فليتعد به ومن رأى نفسه فوق عمله ولم يرض لنفسه بما دون حقه فما اشد جهله
فلذلك كان المتطلع منه او منتسبا في النبات الرفيع فلا حظ له الا من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولذلك قال عمر رضي الله عنه انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العزة في غيره لما عوتب في بذاذة
هيئته عند دخوله الشام وقال ابو الدرداء اعلم ان لله عبادا يقال لهم الابدال خلف من
الانبياء هم اوتاد الارض فلما انقضت النبوة ابدل الله مكانهم قوما من امة محمد صلى الله عليه وسلم
لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة
القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله تعالى بصبر وحلم وتواضع في غير مذلة
قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم اربعون صديقا او ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين
ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله عز وجل قد انشأ من يخلفه
واعلم يا اخي انهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون احدا
ولا يحرصون على الدنيا هم اطيب الناس خيرا والينهم عريكة واسخاهم نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم
التواضع وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم
الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا
الى الله واشتياقا اليه وقدما في استباق الخيرات اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون
قال الراوي فقلت يا ابا الدرداء ما سمعت بصفة اشد علي من هذه الصفة فكيف لي ان ابلغها
قال ما بينك وبين ان تكون في اوسعها الا ان تبغض الدنيا فانك اذا ابغضت الدنيا
اقبلت على حب الاخرة وبقدر حبك الاخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك واذا
علم الله من عبد حسن الطلب افرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة واعلم يا ابن اخي ان
ذلك في كتاب الله المنزل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال يحيى بن كثير فنظرنا
في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته بيان الطريق في معالجة الكبر
واكتساب التواضع اعلم ان الكبر من المهلكات ولا يخلو احد من الخلق عن شيء منه وازالته
فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته
مقامان احدهما استئصال اصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب والثاني دفع
العارض منه بالاسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره المقام الاول في
استئصال اصله وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما اما العلمي فهو ان يعرف الانسان

نفسه وربه فيعرف ربه ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم انه اذل من كل ذليل
واقل من كل قليل وانه لا يليق به الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم انه لا يليق العظمة
والكبريا الا بالله تعالى اما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة
واما معرفته نفسه فهو ايضا يطول ولكنا نذكر منه ما ينفع في اثارة التواضع والمذلة ويكفيه ان
يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله عز وجل فان في القرآن علم الاولين والآخرين لمن فتحت بصيرته
وقد قال الله تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي شي خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم
اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره فقد اشارت الآية الى اول خلق الانسان والى آخره والى وسطه فلينظر
الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية اما اول الانسان فهو انه لم يكن شيا مذكورا وقد كان في حكم
العدم دهورا بل لم يكن لعدمه اول واي شي اخس واقل من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم
خلقه الله تعالى من ارذل الاشياء ثم من اقذرها اذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من
مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيا مذكورا
فما صار مذكورا الا وهو على اخس الاوصاف والنعوت اذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا
ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدا بموته قبل
حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل
نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله تعالى من اي
شي خلقه من نطفة خلقه فقدره ومعنى قوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن
شيا مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه كذلك خلقه اولا ثم امتن عليه
فقال ثم السبيل يسره وهذا اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت وكذلك قال تعالى
من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل ومعناه انه احياه بعد
ان كان جمادا ميتا ترابا اولا ونطفة ثانيا واسمعه بعدما كان اصم وبصره بعدما كان فاقدا
للبصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد
الفقد لها واغناه بعد الفقر واشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهداه بعد الضلال
فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف يسره والى طغيان الانسان ما اكفره والى جهل
الانسان كيف اظهره فقال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين
ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون فانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك

الذلة والقلة والخسة والقذارة الى صفة الرفعة والكرامة فصار موجوداً بعد العدم وحياً بعد الموت
وناطقاً بعد البكم وبصيراً بعد العمى وقوياً بعد الضعف وعالماً بعد الجهل ومهدياً بعد الضلال
وقادراً بعد العجز وغنياً بعد الفقر فكان في ذاته لا شي واي شي اخس من لا شي واي قلة اقل
من العدم المحض ثم صار بالله شيئاً وانما خلقه من التراب الذليل والنطفة القذرة بعد العدم المحض
ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وانما اكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله
وانه لا يليق الكبر الا به ولذلك امتن عليه فقال تعالى الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه
النجدين وعرفه خسته اولاً فقال الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته فقال فخلق فسوى
فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده ابتداء بالاختراع
فمن كان هذا بدؤه وهذه احواله فمن اين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق
اخس الاخساء واضعف الضعفاء نعم لو اكمله وفوض اليه امره وادام له الوجود باختياره
لجاز ان يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الامراض الهائلة
والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبايع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم
يهدم البعض من اجزائه البعض شاء ام ابى رضي ام سخط فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض
كرهاً ويموت كرهاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا خيراً ولا شراً يريد ان يعلم الشي فيجهله ويريد
ان يذكر الشي فينساه ويريد ان ينسى الشي ويغفل عنه فلا يغفل ويريد ان يصرف قلبه الى ما
يهمه فيجول في اودية الوساوس والافكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه
يشتهي الشي وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشي وربما تكون حياته فيه يستلذ الاطعمة فتهلكه
وترديه ويستبشع الادوية وهي تنفعه وتحييه لا يامن في لحظة من ليله او نهاره ان يسلب سمعه
وبصره وتفلج اعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو
مضطر ذليل ان ترك بقي وان اختطف فني عبد مملوك لا يقدر على شي من نفسه ولا شي من غيره
فاي شي اذل منه لو عرف نفسه وانى يليق الكبر به لولا جهله فهذا اوسط احواله فليتامله واما
آخره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره ومعناه انه
يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيعود جماداً كما كان
اول مرة لا يبقى الا شكل اعضائه وصورته لا حس فيها ولا حركة ثم يوضع في التراب فيصير
جيفة منتنة قذرة كما كان في الاول نطفة مذرة ثم تبلى اعضاؤه وتتفتت اجزاؤه

ويخرج عظامه فتصير هباء ورفاتا ويأكل الدود أجزاءه فتبتدي بحدقتيه فيقلعهما وبخديه
فيقطعهما وسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان
ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان
فيصير ترابا يعمل منه الكيزان أو يعمر منه البنيان ويصير مفقودا بعد ما كان موجودا وصار كأن لم
يغن بالأمس حصيدا كما كان في أول أمره أمدا مديدا وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك
ترابا بل يمهله بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلى فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة
ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء ممزقة ومشققة وأرض مبدلة وجبال مسيرة
ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر
إليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال له قد كان
وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان
عليك ما تنطق به وتعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود قد نسيت ذلك
وأحصاه الله فهلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا
من هول هذا الخطاب قبل أن تنشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيها فإذا شاهدها قال
يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى
ثم إذا شاء أنشره فما لمن هذا حاله والتكبر والتجبر بل ما له وللفرح في لحظة فضلا عن البطر فقد ظهر
له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم
ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا وإن كان عند الله مستحقا للعذاب فالخنزير أشرف
وأطيب وأرفع إذ أوله وآخره التراب ومكانه التراب وهو بمعزل عن الحساب والعقاب والكلب والخنزير
لا يهرب منه الخلق ولو رأى العبد المذنب في النار لصعق من وحشة خلقته وقبح صورته
ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى في بحار الدنيا لصارت
أنتن من الجيفة فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفى عنه وهو على شك من العقوبة إلا
أن يعفو الكريم بفضله أو ليس من جنى على بعض الملوك بما استحق به السوط فحبس في السجن
وهو ينتظر إلى أن يخرج إلى العرض ويقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفو عنه
أم لا كيف يكون ذله في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن وما من عبد إلا والدنيا سجنه وقد
استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون أمره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة

ولا ينفعه امر العلاج العلمي القامع لاصل الكبر واما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله تعالى ولسائر الخلق بالمواظبة على اخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من احوال الصالحين ومن احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انه كان يأكل على الارض ويقول انما انا عبد آكل كما يأكل العبد وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال انما انا عبد فاذا اعتقت يوما لبست اشار به الى العتق في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة الا بالعمل ولذلك امر العرب الذين تكبروا على الله وعلى رسوله بالايمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين وفي الصلاة اسرار لاجلها كانت عمادا ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط السوط من يد الواحد فلا ينحني لاخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه حتى قال حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لا اخر الا قائما فبايعه النبي عليه السلام ثم فقه وكمل ايمانه بعد فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة امروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه امر سائر الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الافعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق بالاخلاق المحمودة الا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفي العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت المقام الثاني فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه ان الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فاما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يتيسر على العالم ان لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة الاول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة امرين احدهما ان هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا في صفات ذاته فمن اين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان الذي ينسب اليه حيا لكان له ان يقول الفضل لي ومن انت وانما انت دودة خلقت من بولي افترى ان الدودة التي من بول الانسان اشرف من الدودة التي من بول فرس هيهات بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة الثاني هو ان يعرف نسبه الحقيقي فيعرف اباه وجده فان اباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين فمن اصله التراب المهين الذي يداس بالاقدام ثم خمر طينه حتى صار

سونا كيف يتكبر باخس الاشيا وما انسبه فيقال ما اولك من التراب وما انتن من الحماة وما اقذر
من المضغة فان كان كونه من ابيه اقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة
والمضغة اقرب اليه من الاب فليحقر نفسه بهم ثم ان كان يوجب رفعة لقربه فالاب الاعلى من التراب
فمن اين رفعته واذا لم يكن له رفعة فمن اين جاءت الرفعة لولده فاذا اصله من التراب وفصله من
النطفة فلا اصل له ولا فصل وهذا غاية خسة النسب فالاصل يوطا بالاقدام والفصل يغسل
منه الابدان فهذا هو النسب الحقيقي للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثاله بعد هذه
المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة اصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد اخبره بذلك
والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك اذ اخبره عدول لا يشك في قولهم انه ابن هندي حجام
يتعاطى القذر وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم افترى ان ذلك يبقي شيا
من كبره لا بل يصير عند نفسه احقر الناس واذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن ان يتكبر
على غيره فهذا حال البصير اذا تفكر في اصله وعلم انه من النطفة والمضغة والتراب اذ لو كان ابوه
ممن يتعاطى نقل التراب او يتعاطى الدم بالحجامة او غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة اعضا
ابيه التراب والدم فكيف اذا عرف انه في نفسه من التراب والدم والاشياء القذرة التي يتنزه عنها
هو في نفسه السبب الثاني التكبر بالجمال ودواه ان ينظر الى باطنه نظر العقلا ولا ينظر الى الظاهر
نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه راى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فانه وكل به الاقذار في جميع
اجزائه الرجيع في امعائه والبول في مثانته والمخاط في انفه والبزاق في فيه والوسخ في اذنيه والدم
في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطيه يغسل الغائط كل يوم دفعة او دفعتين بيده ويتردد الى
الخلا كل يوم مرة او مرتين ليخرج من باطنه ما لو راه بعينه لاستقذره فضلا عن ان يمسه او يشمه كل ذلك
ليعرف قذارته وذله هذا في حاله وفي اول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم
الحيض واخرج في مجرى الاقذار اذ خرج من صلب ثم من الذكر مجرى البول ثم الى رحم مفيض دم
الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال انس كان ابو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر الينا انفسنا
ويقول خرج احدكم من مجرى البول مرتين وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ما هذه مشية من في
بطنه خرء اذ راه يتبختر قبل ان يستخلف هذا اوله ووسطه ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف
والغسل لثارت منه الانتان والاقذار وصار انتن واقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها
قط فاذا نظر انه خلق من اقذار واسكن في اقذار وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار

٥٩٧

يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن بكونها الازهار فيه البلى وبينما هو كذلك اذ صار هشيما تذروه الرياح
ولو كان بجماله باقيا وعن هذه الآفات خاليا لكان يجب ان لا يتكبر به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح
اليه فينفيه ولا كان جمال الجميل من صنعه فكيف ولا بقاء له بل هو في كل حال في معرض ان يزول ببعض
بجدري او برص ووجع وسبب من الاسباب فكم من وجه جميل قد شوهت بهذه الاسباب فمعرفة هذه
الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن اكثر تأملها السبب الثالث التكبر بالقوة ما لا يد
ينبغي من ذلكان يعلم ان ما سلط عليه من العلل والامراض وانه لو توجع عرق واحد في يده لصار
اعجز من كل عاجز واذل من كل ذليل وانه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه وان بقة لو دخلت انفه
او نملة دخلت اذنه لقتلته وان شوكة لو دخلت رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته ما لم
ينجبر في مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على ان يدفع ذبابة عن نفسه فلا ينبغي ان
يفتخر بقوته ثم ان قوي الانسان فلا يكون اقوى من حمار او بقرة او فيل او جمل واي افتخار في سبب
يسبقك البهائم بها السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الاتباع والانصار
والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الانسان لا كالجمال
والقوة والعلم وهذا اقبح انواع التكبر فان المتكبر بماله كانه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت
داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى امره على قلب هو اشد غليانا
من القدر فان تغير عليه كان اذل الخلق وكل متكبر بامر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر
بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فاف لشرف يسبقك به اليهود
ولشرف ياخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه اسباب ليست في ذاته وما هو
في ذاته ليس اليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس اليك
فليس لك وشيء من هذه الامور ليس اليك بل الى واهبه ان ابقاه بقي وان استرجعه زال وما انت
الا عبد مملوك لا تقدر على شيء فمن عرف ذلك لا بد وان يزول كبره ومثاله ان يفتخر الغافل بقوته وجماله
وتخيل استقلاله بنعمة ... فهذا ... عليها ... عند
... ان ابن كان ملوكيا ... ذلك ... جميع ملكه ... وجد ... ذلك كان ... في اموال ... في طلب ما اكثر
... ما ... نظر ... ثم ... منزل ... والضارب الهوام
في كل حال على ... من ... ما لا ... لا يملك لنفسه ولا ملك ... الاخرات

الا ترى ان من هذه حاله لا يفتخر بقدرته وثروته وقوته وكالدام يذلل نفسه ويخضع حتى
حاله كل عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فانه لا يملك نفسه وماله وبدنه واعضاءه ومع ذلك
من آفات وشهوات وامراض واسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك فمن هذا
حاله لا يتكبر بقدرته وقوته اذ يعلم انه لا قدرة له ولا قوة وهذا طريق علاج التكبر بالاسباب
وهو اهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كمالان في النفس جدير بان يفرح بهما ولكن
التكبر بهما ايضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره السبب السادس التكبر بالعلم وهو
اعظم الآفات واغلب الادواء وابعدها عن قبول العلاج الا بشدة شديدة وجهد جهيد
وذلك لان قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو اعظم من قدر المال والجمال وغيرهما
بل لا قدر لهما اصلا الا اذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب ان للعلم طغيانا كطغيان المال
ولذلك قال عمر رضي الله عنه العالم اذا زل زلت به عالم كثير فيعجز العالم عن ان لا يستعظم
نفسه بالاضافة الى الجاهل لكثرة ما نطق به الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع
الكبر الا بمعرفة امرين احدهما ان يعلم ان حجة الله تعالى على اهل العلم اكد وانه يحتمل من الجاهل
ما لا يحتمل عشره من العالم وان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته افحش اذ لم يقض حق نعمة
الله تعالى عليه في العلم ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم
القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به اهل النار
فيقولون ما لك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله سبحانه
وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها
كمثل الحمار يحمل اسفارا اراد به علماء اليهود وقال في بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذي
آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى بلغ فمثله كمثل الكلب قال ابن عباس اوتي بلعم كتابا فاخلد
الى شهوات الارض اي سكن حبه اليها فمثله بالكلب اي سواء اوتيته الحكمة ام لم اوته فلا
يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فاي عالم لم يتبع شهوته واي عالم لم يامر بالخير الذي لا يأتيه
فمهما خطر للعالم عظم قدره بالاضافة الى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده
فان خطره اعظم من خطر غيره كما ان قدره اعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر
بروحه في ملكه لكثرة اعدائه فانه اذا اخذ وقهر اشتهى ان لو كان فقيرا فكم من عالم يشتهي
في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه فهذا الخطر يمنع من التكبر لانه ان كان من اهل

بل اذ الخنزير افضل منه فكيف يتكبر فلا ينبغي ان يكون العالم اكبر عنده من الصحابة وقد كان بعضهم
يقول يا ليت امي لم تلدني ويأخذ الآخر تبنة من الارض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة ويقول
الآخر يا ليتني كنت طيرا اوكل كل ذلك خوفا من خطر الآخرة فكانوا يرون انفسهم اسوأ حالا من الطير
ومن التراب ومهما اطال الفكر في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كانه
شر الخلق ومثاله عبد امره سيده بامور فشرع فيها فترك بعضها وادخل النقصان في بعضها
وشكك في بعضها انه هل اداها كما يرتضيه مولاه ام لا فاخبره مخبر ان مولاه ارسل اليه رسولا يخرجه
من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الشمس والحر زمانا طويلا حتى اذا ضاق عليه الامر
وبلغ به المجهود امر برفع حسابه وفتش عن جميع اعماله قليلها وكثيرها ثم امر به الى سجن ضيق
وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم ان سيده قد فعل ذلك بطوائف من عبيده مثل ذلك
وعفا عن بعضهم وهو لا يدري انه من اي الفريقين يكون فاذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل
وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على احد من الخلق بل رجا ان يكون هو من شفعائه
عند نزول العذاب به فكذلك العالم اذا تفكر فيما ضيعه من اوامر ربه بجنايات على جوارحه
وبذنوب في باطنه من الرياء والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر
العظيم فارقه كبره لا محالة الامر الثاني ان العالم يعرف ان الكبر لا يليق الا بالله وحده وانه اذا
تكبر صار ممقوتا عند الله تعالى بغيضا وقد احب الله تعالى منه ان يتواضع فقال ان لك عندي قدرا
ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك فلا بد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه
وهذا يزيل التكبر عن قلبه وان كان يستيقن انه لا ذنب له مثلا او تصور ذلك وبهذا زال
الكبر عن الانبياء اذ علموا ان من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد امرهم الله تعالى ان يصغروا
انفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا ايضا مما يبعثه على التواضع لا محالة فان قلت فكيف
يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل
فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف ينبغي ان يغفل عن خطر العلم وهو يعلم ان
خطر الفاسق والمبتدع اكبر فاعلم ان ذلك انما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر الى الكافر
لم يمكنه ان يتكبر عليه اذ يتصور ان يسلم الكافر فيختم له بالايمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر
والكبير من هو كبير عند الله تعالى في الآخرة والكلب والخنزير اعلى رتبة ممن هو عند الله من اهل النار
وهو لا يدري ذلك فكم من مسلم نظر الى عمر رضي الله عنه قبل اسلامه فاستحقره وازدراه

لكن مقدار ما هو حق الاسلام وفاق جميع المسلمين الا ابا بكر وعمر فالعواقب مطوية عن العباد ولا
ينظر العاقل الا الى العاقبة وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة فاذن من حق العبد الا يتكبر على احد
بل ان نظر الى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وانا عصيته بعلم فهو اعذر مني وان نظر الى عالم
فيقول انه قد علم ما لم اعلم فكيف اكون مثله وان نظر الى كبير هو اكبر منه قال هذا قد اطاع الله قبلي فكيف
اكون مثله وان نظر الى صغير قال اني عصيت الله قبله فكيف اكون مثله وان نظر الى مبتدع او كافر
قال ما يدريني لعله يختم له بالاسلام ويختم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية الي كما لم يكن ابتداؤها الي
فبملاحظة الخاتمة يقدر على ان ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بان يعلم ان الكمال في سعادة الآخرة والقرب
من الله تعالى لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق
على كل واحد ان يكون مصروف الهم الى نفسه مشغول القلب بخوف عاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره
فان الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل انسان على نفسه فاذا حبس جماعة في جناية ووعدوا ان
يضرب رقابهم لم يتفرغ بعضهم للتكبر على بعض وان عمهم الخطر اذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات
الى غيره حتى كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره فان قلت فكيف ابغض المبتدع في الله
والفاسق وقد امرت ببغضهما ثم مع ذلك امرت بالتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا الامر مشتبه
يلتبس على اكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله في انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم
والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا راى فاسقا جلس بجنبه ازعجه من عنده وتنزه عنه بكبر
باطن في نفسه وهو ظان انه قد غضب لله كما وقع لعابد بني اسرائيل مع خليعهم وذلك لان
الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو
خير فان الغضبان يتكبر ايضا على من غضب عليه والمتكبر يغضب واحدهما يثمر الآخر ويوجبه وهما
ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون والذي يخلصك من هذا ان يكون الحاضر على قلبك
عند مشاهدة المبتدع او الفاسق او امرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة امور احدها الالتفات
الى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك والثاني ان تكون ملاحظتك
لما انت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث انها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة
فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك واذا لم تعجب لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك
وعاقبته انه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه فان قلت فكيف
اغضب مع هذه الاحوال فاقول تغضب لمولاك وسيدك اذ امرك ان تغضب لا لنفسك وانت في غضبك

لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علمت من خفايا ذنوبك
اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة واعلم ان ذلك مثال المتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله
عز وجل ان يتكبر على المغضوب عليه ويرى نفسك فوقه فيزدريه فانظر اذا كان للملك غلام وولد هو مستحق
رعايته وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وامره بضربه مهما اساء ادبه واشتغل بما لا يليق به وغضب
عليه فان كان الغلام مطيعا محبا لمولاه فلا يجد بدا من ان يغضب عليه اذا رآه قد اساء
الادب وانما غضب عليه لمولاه ولانه امره به ولانه يريد التقرب بامتثال امره اليه ولانه جرى من
ولده ما يكره مولاه فيغضب لذلك ويغضب من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يعتقده عنده فوق
رتبة نفسه لان الولد اعز لا محالة من الغلام فاذا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم
التواضع فكذلك يمكنك ان تنظر الى المبتدع والفاسق وتظن انه ربما تكون رتبته عند الله في
الآخرة اعظم لما سبق له من الحسنى في الازل ولما سبق لك من سوء القضاء في الازل
وانت غافل عنه ومع ذلك تغضب عليه لحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع له لجواز
ان يكون عنده اقرب منك في الآخرة فهكذا يكون بغض العلماء الاكياس فينضم اليه الخوف
والتواضع واما المغرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية
الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله او اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته حكما الا
المتشبه الظاهر المنكر بالورع والعبادة وذلك ايضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله في
ان يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو ان يعلم ان من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي ان يتكبر
عليه كيف ما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين
لا يعلمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل
من اصحابي الى غير ذلك مما ورد في فضل العلم فان قال العابد ذلك العالم لم يعمل بعلمه فهو
عالم فاجر فيقال له اما عرفت ان الحسنات يذهبن السيئات وكما ان العلم يمكن ان يكون
حجة على العالم يمكن ان يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد ورد في الاخبار
ما يشهد لذلك واذا كان هذا امرا غائبا عنهم جاز ان يحتقر عالما بل يجب عليه ان يتواضع
فان قلت فان صح هذا فينبغي للعالم ان يرى لنفسه فوق العابد لقوله عليه السلام فضل
العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل من اصحابي فاعلم ان ذلك كان ممكنا لو علم العالم
الخاتمة وخاتمة الامر مشكوك فيه فيحتمل ان يموت بحيث يكون حاله عند الله اشد من حال

بل لعل الفاسق لذنب واحد كان عقته هنا أو هو عند الله عظيم وقد مقته به وإذا كان هذا ممكنا
كان على نفسه خائفا فإذا لكل واحد من العالم والعابد خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر
غيره فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال
وهذا الحال الغالب مع العابد فأما مع غير العابد فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي
أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله وأما المكشوف حاله فإن لم
يظهر لك من الذنوب إلا ما يظهر عليه وربما كنت تطلع على أكثر فلا ينبغي أن يتكبر عليه ولا يمكن أن يقال هو أكبر
منك ذنبا لأن عدد ذنوبك وذنوب غيرك في علم الله سر لا يطلع عليه أحد حتى تعلم الكثرة فيمكن أن يعلم
أن ذنوبه أشد كالزنا وشرب الخمر والقتل والشرب وإن كان مع ذلك فلا ينبغي أن يتكبر إذ ذنوب القلوب
من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ فيه
كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا وقد
جرى على الفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما انتفى خال
ويكفر ذلك سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات وهذا ممكن والإمكان
البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما هو من غيرك بل
فيما هو خوف في حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك فإذا
تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك وقد قال
وهب بن منبه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعد تسعة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة
وما العاشرة بها ساد مجده وعلا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وإنما الناس عنده فرقتان فرقة
هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه إن رأى من هو خير منه
سره ذلك وتمنى أن يلحق به وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من
العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله تعالى فيرحمه
ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال وبري ظاهر فذلك شر لي فلا يأمن فيما أظهر من الطاعة أن يكون
دخلها الآفات فأحبطتها ثم قال فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه وبالجملة من جوز
أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء الأزلي بشقوته فما سبيله أن يتكبر بحال من الأحوال نعم
إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روي أن عابدا آوى إلى جبل
فقيل له في النوم ائت فلانا الإسكاف فاسأله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار

ويكب يتصدق بمعصيته ويعظم جاه بنفسه ليحج وهو يقول ان هذا الحسن ولكن ليس كالمنزع
لطاعة او فاق في العلم ثانيا وقيل لداود الاسكاف فقال له ما هذا السواد بوجهك فاتاه فساله
فقال ما رايت احدا من الناس الا ظننت انه خير مني واهلك انا فقال السائل بهذا والذي يدل على
تعبد هذه الخصلة قوله تعالى يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اي يؤتون الطاعة وهم على وجل
عظيم من قبولها وقال تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وقال انا كنا قبل في اهلنا
مشفقين وقد وصف الله تعالى الملائكة مع تقدسهم من الذنوب ومواظبتهم على العبادة على الدوام
بالاشفاق فقال يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته مشفقون فمتى زال
الاشفاق والحذر بما سبق من القضاء في الازل ولم ينكشف في خاتمة الاجل غلبة الامن من مكر الله و
يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الامن والامن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد
فاذا ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر اليهم بعين الاستصغار اكثر مما يصلحه
بظاهر الاعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير الا ان القلب بعد هذه المعرفة
قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت
وعدها فلهذا لا ينبغي ان يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي ان يكمل بالعمل ويجرب بافعال
المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس وبيانه ان يمتحن النفس بخمس امتحانات هي ادلة على
استخراج ما في الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة الامتحان الاول ان يناظر في مسألة
مع واحد من اقرانه فان ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له
والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق
الله فيه وليشتغل بعلاجه اما من حيث العلم فبان يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان
الكبر لا يليق الا بالله تعالى واما بالعمل فبان يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وان يطلق
اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما احسن ما فطنت
له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نبهتني له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي ان
يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعا وسقط ثقل الحق عن
قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على اقرانه بما فيهم ففيه كبر فان كان ذلك لا يثقل
عليه في الخلوة ويثقل في الملا فليس فيه كبر وانما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع
عن الناس وتذكير القلب بان منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق الى غير ذلك من ادوية

الرياء وان ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعا فيه الكبر والرياء جميعا فلا ينفعه الخلاص من احدهما ما لم
يتخلص من الثاني فليعالج كلا الداءين فانهما جميعا مهلكان الامتحان الثاني ان يجتمع مع الاقران
والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدر تحتهم فان ثقل عليه ذلك
فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو
ان يجلس في صف النعال او يجعل بينه وبين الاقران بعض الارذال فيظن ان ذلك تواضع وهو عين
التكبر فان ذلك يخف على نفوس المتكبرين اذ يوهمون انهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون
قد تكبر وتكبر باظهار التواضع ايضا بل ينبغي ان يقدم اقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف
النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن الامتحان الثالث ان يجيب دعوة الفقير
ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الافعال من
مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس منها ليس الا لخبث في الباطن فليشتغل
بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل الكبر الامتحان الرابع ان
يحمل حاجة نفسه وحاجة اهله ورفقائه من السوق الى البيت فان ابت نفسه ذلك فهو كبر
او رياء فان كان ذلك مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل الا مع مشاهدة الناس فهو رياء
وكل ذلك من امراض القلب وعللها المهلكة له ان لم يتدارك وقد اهمل الناس طب القلوب
واشتغلوا بطب الاجساد مع ان الاجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك الشفا
الا بسلامتها اذ قال تعالى الا من اتى الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله بن سلام انه حمل حزمة
حطب فقيل له يا ابا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك قال اجل ولكن اردت ان اجرب
نفسي هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما اعطته من العزم على ترك الانفة حتى جربها اهي صادقة
ام كاذبة وفي الخبر من حمل الفاكهة او الشيء فقد برئ من الكبر الامتحان الخامس ان يلبس ثيابا
بذلة فان نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز له مسح يلبسه بالليل
وقد قال النبي عليه السلام من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر وقال صلى الله عليه وسلم
انما انا عبد آكل بالارض والبس الصوف واعقل البعير والعق اصابعي واجيب دعوة المملوك
فمن رغب عن سنتي فليس مني ويروى ان ابا موسى الاشعري قيل له ان اقواما يتخلفون عن الجمعة
بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يخص بالملأ
فهو الرياء وما يكون في الخلوة فهو الكبر فاعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك الفرق لا

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم ان هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان وواسطة فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود ان يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفي قصد الامور ذميم واحب الامور الى الله تعالى اوساطها فمن يتقدم على امثاله فهو متكبر ومن تاخر عنهم فهو متواضع اي وضع شيا من قدره الذي يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه واجلسه فيه ثم تقدم فسوى له نعله وعدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا ايضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو ان يعطي كل ذي حق حقه فينبغي ان يتواضع بمثل هذا لاقرانه ومن يقرب من درجته فاما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السوال واجابة دعوته والسعي في حاجته وامثال ذلك وان لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه اخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة امره فاذا سبيل اكتساب التواضع ان يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وان كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى احب التملق والتخاسس فقد خرج الى طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن ان يذل نفسه الى ان يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الاخلاق والميل عن الوسط الى طرف النقصان وهو التملق اهون من الميل الى طرف الزيادة بالتكبر كما ان الميل الى طرف التبذير في المال احمد عند الناس من الميل الى طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان واحدهما افحش وكذلك نهاية التكبر ونهاية التخاسس والتذلل مذمومان واحدهما اقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل ووضع الامور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة وليقتصر على هذا من بيان اخلاق الكبر والتواضع

الشطر الثاني من الكتاب في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفته وبيان حقيقة العجب والادلال وحدهما وبيان علاج العجب على الجملة وبيان اقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

بيان ذم العجب وآفته

اعلم ان العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ذكر ذلك في معرض الانكار وقال تعالى وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله

فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ردّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ
فيه كما يعجب بعمل هو فيه مصيب وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى
متبع وإعجاب المرء بنفسه وقال لأبي ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة فقال إذا رأيت شحا مطاعا
وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك وقال ابن مسعود الهلاك في اثنين
القنوط والعجب وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير والقانط
لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال
لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فمن ثم جمع
بينهما وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم قال ابن جريج معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت وقال
زيد بن أسلم لا تبرّوها أي لا تعتقدوا أنها بارّة وهو معنى العجب ووقى طلحة رسول الله يوم أحد
بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعل العظيم إذ فداه بمهجته حتى عرف في
ذلك عمر فقال ما زالت تعرف في طلحة نأو منذ أصيبت إصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
والنأو هو الكبر في اللغة إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهر واحتقر مسلما فلما كان وقت الشورى
قال ابن عباس أين أنت من طلحة قال ذاك رجل فيه نخوة فإذا كان لا يخلص من العجب أمثالهم
فكيف يخلص منه الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم وقال مطرف لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب
إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما
هو أكبر من ذلك العجب فجعل العجب أكبر من الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين إذا رأوا ذكر الله
تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر
فلما انصرف عن الصلاة قال لا يعجبك ما رأيت مني فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة
مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت
إذا ظن أنه محسن وقد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام
العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا بيان آفة العجب اعلم أن آفات العجب
كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات
الكثيرة التي لا تخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها
فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكر منها

ويستصغرها ولا يستعظمها فلا يجتهد في تداركها وتلافيها بل يظن انها تغفر له واما العبادات
والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين
منها ثم اذا اعجب بها عمي عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان اكثر سعيه ضايعا فان
الاعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوايب قلما تنفع وانما يتفقد من يغلب عليه
الاشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه وبربه ويامن مكر الله وعقابه ويظن انه
عند الله بمكان وان له على الله منة وحقا باعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه
العجب الى ان يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها وان اعجب برايه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة
ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورايه ويستنكف من سؤال من هو اعلم منه وربما
يعجب بالراي الخطا الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره ولا يسمع
نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطايه فان كان رايه
في امر دنيوي فيحقق فيه وان كان في امر ديني لا سيما فيما يتعلق باصول العقايد فيهلك به
ولو اتهم نفسه ولم يثق برايه واستضا بنور القرآن واستعان بعلما الدين وواظب على مدارسة
العلم وتابع سؤال اهل البصيرة لكان ذلك يوصله الى الحق فهذا وامثاله من آفات العجب
فلذلك كان من المهلكات ومن اعظم آفاته انه يفتر في السعي لظنه انه قد فاز وانه قد استغنى
وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما
اعلم ان العجب انما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال
وغيره حالتان احداهما ان يكون خايفا على زواله ومشفقا على تكدره او سلبه من اصله
فهذا ليس بمعجب والاخرى ان يكون خايفا من زواله لكن فرحا به من حيث انه نعمة من الله
تعالى عليه لا من حيث اضافته لنفسه وهذا ايضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هي العجب
وهو ان يكون غير خايف عليه بل يكون فرحا به مطمينا اليه ويكون فرحه به من حيث انه كمال
ونعمة ورفعة وخير لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة فيكون فرحه به من حيث انه صفته
ومنسوب اليه بانه له لا من حيث انه منسوب الى الله تعالى بانه منه فمهما غلب على قلبه انه
نعمة من الله تعالى مهما شا سلبه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة
والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فان انضاف الى ذلك ان غلب على نفسه ان له
عند الله حقا وانه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد ان يجري عليه مكروه

استبعاد ان يرد عليه استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا ادلالا بالعمل فكانه يري لنفسه على الله
دالة وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبا فان استخدمه او اقترح عليه
الاقتراحات او استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقد قال قتادة في قوله تعالى
ولا تمنن تستكثر اي لا تدل بعملك وفي الخبر ان صلاة المدل لا ترتفع فوق راسه ولان تضحك وانت
معترف خير من ان تبكي وانت مدل بعملك والادلال وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب ورب معجب
لا يدل اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال
لا يتم الا مع توقع جزاء فان توقع اجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منها كان مدلا بعمله لانه
لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والادلال
وهو من مقدمات الكبر واسبابه بيان علاج العجب على الجملة اعلم ان علاج كل علة هو مقابلة
سببها بضدها وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض
العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق
فان العجب بهذا اغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه
من نفسه فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب انما يعجب به من حيث انه فيه
فهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لان المحل مسخر ومجرى لا مدخل له
في الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس اليه وان كان يعجب به من حيث هو فيه واليه وباختياره
حصل وبقدرته وبقوته تم فينبغي ان يتامل في قدرته وارادته واعضائه وسائر الاسباب
التي بها تم عمله انها من اين كانت له فان كان جميع ذلك نعمة من الله من غير حق سبق له ومن غير وسيلة
تدلي بها فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله وكرمه وفضله اذ افاض عليه ما لا يستحقه وآثره على
غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر اليهم فخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة
فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغي ان يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وايثاره
من غير استحقاق فاعجابه بنفسه من اين وما سببه ولم ينبغي ان يتعجب هو بنفسه نعم يجوز
ان يعجب العبد فيقول الملك حكيم عدل لا يظلم ولا يتقدم ولا يؤخر الا لسبب فلولا انه تفطن
فيّ من الصفات المحمودة الباطنة ما اقتضى الايثار بالخلعة لما آثرني بها فيقال وتلك الصفة
هي ايضا من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة او هو عطية غيره
فان كان من عطية الملك ايضا لم يكن لك ان تعجب به بل كان كما لو اعطاك فرسا فلم تعجب به فاعطاك

فلو ما صرت تعجب به فيقول انما اعطاني غلاما لاني صاحب فرس وانا عرفت بالفرس فيقال وهو الذي
اعطاك الفرس فلا فرق بين ان يعطيك الفرس والغلام معا او يعطي احدهما بعد الاخر فاذا كان
الكل منه فينبغي ان يعجبك جوده وفضله لا نفسك واما ان كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد
ان تعجب بتلك الصفة فهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار ملك الملوك المنفرد
باختراع الجميع المنفرد بايجاد الموصوف والصفة فانك ان اعجبت بعبادتك وقلت وفقني لحبي
حبي له تعالى ومن خلق الحب في قلبك فيقول هو تعالى والحب والعبادة كلاهما نعمتان
من عنده ابتداك بها من غير استحقاق من جهتك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده
اذ انعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود اعمالك واسباب اعمالك فاذا لا معنى لعجب العابد
بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه لان كل ذلك من فضل الله
وانما هو محل لفيضان فضل الله وجوده والمحل ايضا من جوده وفضله فان قلت لا يمكنني ان
اجهل اعمالي واني انا عملتها فاني انتظر عليها ثوابا ولولا انها عملي لما انتظرت الثواب فان
كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن اين لي الثواب وان كانت الاعمال مني وبقدرتي
فكيف لا اعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين احدهما هو صريح الحق والاخر فيه مسامحة
اما صريح الحق فهو انك وقدرتك وارادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله تعالى واختراعه فما
عملت اذ عملت وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذي
انكشف لارباب القلوب بمشاهدة اوضح من ابصار العين بل خلقك وخلق اعضاءك وخلق
فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الارادة ولو اردت ان تنفي
شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في اعضائك مستبدا باختراعها من
غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع الا انه خلقها على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في
العضو قوة وفي القلب ارادة ولم يخلق ارادة ما لم يخلق علما بالمراد ولم يخلق العلم ما لم يخلق
القلب الذي هو محل العلم فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل اليك انك اوجدت
عملك وقد غلطت وايضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله تعالى سياتي تقريبا
في كتاب الشكر فانه اليق به فارجع اليه ونحن الان نزيل اشكالك بالجواب الثاني الذي فيه
مسامحة وهو ان تحسب ان العمل حصل بقدرتك فمن اين قدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك
ووجود عملك وارادتك وقدرتك وسائر اسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فان كان العمل

بالقدرة فالقدرة مفتاحها فهذا المفتاح بيد الله ومهما لم يعطك فلا يمكنك العلم فالعبادات خزائن
بها يتوصل الى السعادات ومفاتيحها القدرة والارادة والعلم وهي بيد الله لا محالة أرأيت لو أن خزائن
الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة
لم يمكنك أن تنظر الى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك اليه فتأخذه
فقط فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت اليد وأخذتها كان
اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح أو بما اليك من مد اليد وأخذه فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن
لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريب وانما الشأن كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت
القدرة وسلطت الارادة الجازمة وحركت البواعث والدواعي وصرف عنك الموانع والصوارف حتى
لم يبق صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة
الأسباب كلها من الله تعالى ليس شيء منها اليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه
الأمر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في ايثاره اياك على الفساق من عباده اذ سلط دواعي الفساد
على الفساق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب
الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير
وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي
بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب اعجابك بنفسك اذا
عرفت ذلك فاذا لا تنصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا الى مخالفتها
فكأنه الذي اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا فبحقه الشكر والمنة لا لك وسيأتي في كتاب
التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل الا الله
تعالى ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وأفقره مما أفاض الله عليه المال من غير
علم فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض عليه نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل
حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم
أشبه في ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا
جمعتهما لي أو هلا فرقتهما وإلى هذا أشار علي رضوان الله عليه حيث قيل ما بال العقلاء فقراء
فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني
أحسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك لامتنع عنه فاذن ذلك يدل

من ان هذه الدار حلية اكرم فلم يحجب عنه والمرأة لما شاهد المنقوش [illegible] على الدرجة [illegible]
يقول لكنت [illegible] مثل هذا الجمال من الزينة وخص [illegible] كالشمس لا [illegible] ان الجمال
[illegible] عليها [illegible] وانها [illegible] بين الجمال [illegible] الجمال [illegible] عليها
اكثر وقول الحكيم [illegible] يا رب لم [illegible] الدنيا اعطيت [illegible] من اعطاه
الملك [illegible] يا [illegible] الكلام وانا [illegible] لا تعجب [illegible]
[illegible] ما [illegible] قالت [illegible]
لا [illegible] منها [illegible] ذلك [illegible] على [illegible]
كل [illegible] الاشتغال [illegible] العجب [illegible]
والشكر [illegible] عن زوال النعمة [illegible] ان يحب [illegible] ان [illegible]
ولذلك [illegible] قال داود عليه السلام يا رب [illegible] ان [illegible] داود [illegible] يوم الا [illegible]
من آل داود صائم [illegible] آل داود [illegible]
[illegible] يا داود [illegible] لم يكن [illegible]
[illegible] قال ابن عباس [illegible]
من [illegible] الى آل داود [illegible]
وقال [illegible] بني اسرائيل [illegible] يعقوب [illegible]
[illegible] بالعمل [illegible] فقال [illegible]
[illegible] فقال يا رب [illegible] بالعمل [illegible] فقال تعالى
[illegible] لا [illegible]
[illegible] المرأة [illegible]
[illegible] يوم
[illegible] حنين [illegible] تعالى
ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين
[illegible] لا
[illegible]
ذلك [illegible]
[illegible]

ورحمته خير الخلق ان احدكم لن ينجيه عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته
ولقد كان الصحابة من بعده يتمنون ان يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء اعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذي
بصيرة ان يعجب بعمله او يدل به ولا يخاف على نفسه فاذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب
ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها بل هو ينظر الى الكفار و
الفساق وقد سلبوا الايمان والطاعة بغير ذنب اذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول ان من لا
يبالي ان يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة لا يبالي ان يعود ويسترجع ما وهب فكم
من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال والله اعلم
بيان اقسام ما به العجب وتفصيل علاجه اعلم ان العجب بالاسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب
بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله فما به العجب ثمانية اقسام الاول ان يعجب ببدنه
في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب اشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل
خلقته فيلتفت الى جمال نفسه وينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال وعلاجه
ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في اقذار باطنه وفي اول امره وفي آخره وفي الوجوه الجميلة
والابدان الناعمة انها كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع
الثاني البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا من اشد منا قوة وكما اتكل عوج على
قوته واعجب به فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقبها الله تعالى حتى صارت
في عنقه وقد يتكل المؤمن ايضا على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام انه قال لاطوفن الليلة
بمائة امرأة ولم يقل ان شاء الله تعالى فحرم ما اراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام ان ابتليتني
صبرت وكان اعجابا بالقوة فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب والقاء النفس في التهلكة
والمبادرة الى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهو ان يعلم ان حمى
يوم تضعف قوته وانه اذا اعجب بها ربما سلبها الله تعالى بادنى آفة يسلطها عليه الثالث
العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الامور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد
بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى اهل العلم
اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارا لهم واهانة وعلاجه ان يشكر الله تعالى
على ما رزق من العقل ويتفكر انه بادنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك
منه فلا يأمن ان يسلب عقله ان اعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه وليعلم انه

ما اوتي من العلم الا قليلا وان اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس اكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس
من علم الله تعالى وان يتهم عقله وينظر الى الحمقا كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر ان
يكون منهم وهو لا يدري فان القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي ان يعرف مقدار عقله من
غيره لا من نفسه ومن اعدائه لا من اصدقائه فان من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه
الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن
بعضهم انه ينجو بشرف نسبه ونجاة ابائه وانه مغفور له ويتخيل بعضهم ان جميع الخلق له موالي
وعبيد وعلاجه ان يعلم انه مهما خالف اباءه في افعالهم واخلاقهم وظن انه ملحق بهم فقد جهل وان
اقتدى بابائه فما كان من اخلاقهم العجب بل الخوف والازراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس
ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به وقد ساواهم في النسب
وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الاخر وكانوا عند الله شرا من الكلاب واخس من الخنازير ولذلك قال
تعالى يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى اي لا تفاوت في انسابكم لاجتماعكم في اصل واحد
ثم ذكر فائدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ثم بين ان الشرف بالتقوى لا بالنسب
فقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من اكرم الناس من اكيس الناس
لم يقل من ينتمي الى نسبي ولكن قال اكرمهم اكثرهم للموت ذكرا واشدهم له استعدادا وانما نزلت هذه الاية
حين اذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن اسيد هذا
العبد الاسود يؤذن فقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله قد اذهب
عنكم عبية الجاهلية اي كبرها كلكم بنو ادم وادم من تراب وقال النبي صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش
لا ياتي الناس يوم القيامة بالاعمال وتاتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فاقول هكذا
اي اعرض عنكم فبين انهم ان مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى وانذر عشيرتك الاقربين
ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه
وسلم اعملا لانفسكما فاني لا اغني عنكما من الله شيئا فمن عرف هذه الامور وعلم ان شرفه بقدر تقواه
وقد كان من عادة ابائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع والا كان طاعنا في نسب
نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والاشفاق فان قلت
فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية اني لا اغني عنكما من الله شيئا الا ان لكما رحما
سابلها ببلالها وقال عليه السلام اترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب

يدل على انه حسن قرابته بالشفاعة فاعلم ان كل مسلم فهو مستحق لشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذنب
ايضا [illegible] ملك [illegible] ان يشفع فلا [illegible] ان يشفع فيه ولا يأذن له [illegible] شفاعته فان له
[illegible] في المستقلة [illegible] الشفاعة كالذنوب
عند ملوك الدنيا [illegible] مكانة عند الملك لا [illegible] على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك
فمن الذنوب ما لا [illegible] الشفاعة [illegible] لا يشفعون الا لمن ارتضى [illegible]
[illegible] الشفاعة الا لمن اذن له الرحمن [illegible]
[illegible] الذنوب الى ما يشفع فيها والى ما لا يشفع فيها بحسب الخوف والاشتياق لا محالة
[illegible] كل ذنب [illegible] الشفاعة [illegible] بالطاعة [illegible] من المعصية [illegible]
[illegible] الشهوات [illegible] الدنيا [illegible] الآخرة [illegible] في الآخرة
[illegible] الذنب [illegible] الشفاعة [illegible] المريض [illegible]
[illegible] على [illegible] الطبيب [illegible]
[illegible] في ازالة [illegible] الطبيب
[illegible]
[illegible] الشفعاء من الانبياء [illegible] لا يزيل [illegible]
[illegible] ان [illegible]
من خوف الآخرة [illegible] رسول الله [illegible]
[illegible] بالشفاعة [illegible]
والخوف [illegible] الشفاعة [illegible]
[illegible] السلاطين [illegible] الدين والعلم [illegible] الجهل [illegible]
ان [illegible] الظلم [illegible] الله [illegible]
[illegible] الاستحقاق [illegible]
[illegible] يوم [illegible]
[illegible] العباد [illegible]
[illegible] الشفاعة [illegible]
[illegible] الا [illegible]

حتى انه ليس العجب بكثرة [illegible] الاكثر [illegible] الاشياع

كما قال [illegible] من قلة [illegible] ما تركنا

في [illegible] لا [illegible]

[illegible] كيف [illegible] اذا [illegible]

[illegible] الى [illegible]

[illegible] الجنة [illegible]

من [illegible] الا [illegible]

[illegible] لا [illegible]

[illegible] السلام [illegible] المال [illegible]

[illegible] عليه وسلم [illegible]

[illegible] العجب [illegible]

[illegible] المال [illegible] الى الجنة [illegible]

[illegible] المال [illegible] في المال [illegible] عليه السلام

[illegible] الامر [illegible]

[illegible] الشاطبي [illegible]

[illegible]

[illegible] قال [illegible]

[illegible] كتاب ذم الدنيا [illegible] ذم المال [illegible]

[illegible] فكيف [illegible]

[illegible] المال [illegible] لا [illegible]

[illegible] فكيف [illegible] العجب بالراي [illegible] قال [illegible]

[illegible] انهم [illegible]

[illegible] ان ذلك [illegible] الامة [illegible] الامم [illegible]

[illegible] وجميع اهل البدع والضلال [illegible]

[illegible] والشبهة [illegible] هذا العجب [illegible]

قيل لان صاحب الرأي المخطئ جاهل [illegible] الذي لا يعرف [illegible]
والا يعرف [illegible] الا ان العارف [illegible] على ان يبين للجاهل جهله [illegible] الا اذا
كان معجبا برأيه مستبدا فانه لا يصغي الى العارف [illegible] سلطانه [illegible] ذلك
[illegible] وكيف يطلب [illegible] ما هو سبب سعادته [illegible]
وانما [illegible] ان يكون [illegible] ابدا الا [illegible] الا ان [illegible] كلمة [illegible]
[illegible] الادلة [illegible] الشرع [illegible] بشرطها
ومحاسن الفاظها [illegible] العقل [illegible] المكاتب
[illegible] العلم [illegible] ومع ذلك فلا [illegible]
بعض الامة [illegible] لم [illegible] في العلم ان [illegible] المذاهب [illegible]
ايمانا [illegible] ولكن [illegible] مع [illegible]
[illegible] الثلاث [illegible]
[illegible]
الطاعات [illegible] على المسلمين [illegible] المذاهب [illegible]
في [illegible] كل من [illegible]
فاما الذي [illegible] على [illegible] فلا [illegible]
[illegible] في [illegible] الا [illegible]
[illegible] الله تعالى [illegible]

كمل الكتاب بعون [illegible]
والصلاة والسلام على [illegible] ١٣٠ [illegible]

٧٥٧

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي بيده مقاليد الامور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور مخرج اوليائه من الظلمات
الى النور ومورد اعدائه ورطات الغرور والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور وعلى آله واصحابه
الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور
اما بعد فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة
فلا نعمة لله على عباده اعظم من الايمان والمعرفة ولا وسيلة اليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة
ولا نقمة اعظم من الكفر والمعصية ولا داعي اليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالاكياس
وارباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور
والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها
فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فالاكياس هم الذين اراد الله
تعالى ان يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى والمغترون هم الذين اراد الله ان يضلهم فجعل
صدورهم ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية
نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ومن كان في هذه اعمى فهو في
الآخرة اعمى واضل سبيلا واذا عرف ان الغرور هو ام الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح
مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من
العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فاخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة امره ونحن
نشرح اجناس مجاري الغرور واصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا
بمبادي الامور الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ونشير الى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فان
ذلك وان كان اكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على امثلة تغني عن الاستقصاء وفرق المغترين
كثيرة ولكن يجمعهم اربعة اصناف الصنف الاول من العلماء والصنف الثاني من العباد
الصنف الثالث من المتصوفة والصنف الرابع من ارباب الاموال والمغترون من كل صنف
فرق وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من راى المنكر معروفا كالذي يتخذ المسجد ويزخرفه من المال

الحرام ومنهم من لم يترك ما يسعى فيه لنفسه وترك ما يسعى فيه لغيره كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه
ومنهم من يترك الاهم واشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ومنهم من يترك الاهم
اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلوة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف الى غير ذلك
من مداخل لا تتضح الا بتفصيل الغرور وتعيين الامثلة وفيما ذكرنا كفاية للعلماء ولكن قصدنا بيان
ذم الغرور وبيان حقيقته وحده بيان ذم الغرور وحقيقته وامثلته اعلم ان قوله تعالى
لا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم
الاماني كاف في ذم الغرور وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون
سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملء الارض من المغترين
وقال عليه السلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الاماني وكلما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لان الغرور عبارة
عن بعض انواع الجهل اذ الجهل هو ان يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به والغرور هو
جهل الا ان كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذي يغتر
به فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة
فاسدة يظن انها دليل ولا يكون دليلا سمي الجهل الحاصل به غرورا فالغرور هو سكون النفس
الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد انه
على خير اما في العاجل او في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور واكثر الناس يظنون
بانفسهم الخير وهم مخطئون فيه فاكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت اصناف غرورهم
واختلفت درجاتها حتى كان غرور بعضهم اظهر واشد من بعض واظهرها واشدها غرور
الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها امثلة لحقيقة الغرور المثال الاول غرور الكفار
فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور اما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين
قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فاذا هي خير فلا بد من ايثارها
وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك
وهذه اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من
طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم
العذاب ولا هم ينصرون وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان اما التصديق

بين الايمان فهو ان يصدق الله تعالى في قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقوله بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة
وقوله والآخرة خير وابقى وقوله وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور وقد اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك
طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال نشدتك الله ابعثك
الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق وهذا ايمان العامة وهو يخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق
الصبي والده في ان حضور المكتب خير من حضور الملعب مع انه لا يدري وجه كونه خيرا واما المعرفة بالبيان
والبرهان فهو ان يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان فان كل مغرور فلغروره
سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون اليه وان
كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بالفاظ العلماء فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه اصلان
احدهما ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا محل
التلبيس فليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وان كان
اقل منها فالنسيئة خير فان الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول
النقد خير من النسيئة فلا اتركه واذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الاطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من الم
المرض في المستقبل فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الاسفار
نقدا لاجل الراحة والربح نسيئة فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا
من حيث مدتها الى مدة الآخرة فان اقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من الف
الف جزء من الآخرة فكانه ترك واحدا ليأخذ الف الف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد وان نظر من
حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بالمنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا
قد غلط في قوله ان النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور اطلق واريد به
خاص فغفل به المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة اراد به خيرا من نسيئة
هي مثله وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو ان اليقين خير من الشك
والآخرة شك وهذا القياس اكثر فسادا من الاول اذ كلا اصليه باطل اذ اليقين خير من الشك اذا
كان مثله والا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك والمتفقه في اجتهاده على يقين وفي
ادراكه رتبة العلم على شك والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على
شك وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول ان لم اتجر
بقيت جائعا وعظم ضرري وان اتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع

الكريه وهو عن الشفاء على شك ومن ملاذ الدنيا على وقت ما يمكن متى أخبره اثنان الطبيب قريب بالأمنا
إلى ما التلذذ عن المرض والموت فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يميل إلى الصبر أياما
قلائل وهو منتهى العمر بسبب الإضافة إلى ما يقابل من أمر الآخرة فإن كان ما يعتقدها في شيء كذبا فما
يفوته إلا التنعم أيام حياته وقد كنت من الأزل إلى الآن لا تتنعم فاحسب أنك بقيت في العدم
وإن كان صادقا فيبقى صحيحا في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض
الملحدين إن كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت
وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه إن لم يكن متيقنا فهو
مغرور وأما الإشكال الثالث فهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل هو يقين عند أهل البصيرة
وليقينه مدركان أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور
وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء
وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم
ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم
في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب
بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يستحقرهم بقوله ولا يغتر في عمله بسببه ولو اعتمد قوله
وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر إلى المعترفين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين
بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة
والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم
آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم
الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل
طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشكك
في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل
لا محالة والغرور يزول به فأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة ولا يدركه إلا الذين ينفرد بالتفرد عن الخلق كما أن
من كشف له الحق حتى يكون معرفته كمعرفة ما يحصل بالمشاهدة فيشاهدهم فإن اعتقاد ليس
بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون وعرفوا أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها
بالبصيرة الباطنة كما تشاهد المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد

وذلك بان يكشف لهم عن حقيقة الروح وانه من امر ربي [illegible] الى [illegible] الموجودات
وذلك الامر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد الامر الثاني حتى يكون [illegible] من خلق [illegible] فقط لان ذلك
عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم الخلق [illegible] الامر والخلق [illegible] الاجسام ذوات الكمية
والمقادير من عالم الخلق لان الخلق عبارة عن التقدير [illegible] حكم [illegible] من الكمية
والمقدار فانه من عالم الامر [illegible] ذلك سر الروح [illegible] لا [illegible] اكثر الخلق [illegible] القوة
التي [illegible] الروح [illegible] نفسه [illegible] نفسه [illegible] ربه [illegible] عرف نفسه
[illegible] امر رباني [illegible] في عالم [illegible] غريب [illegible]
وانه [illegible] عارض غريب [illegible] ذلك العارض الغريب [illegible] على آدم عليه السلام [illegible]
[illegible] الى خطيئة من الجنة التي هي [illegible] امر رباني
الى جوار الرب تعالى [illegible] الا ان [illegible] من [illegible] العالم الغريب [illegible]
ذلك نفسه وربه [illegible] نفسه [illegible] ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم
اولئك هم الفاسقون اي الخارجون عن [illegible] تعالى [illegible] الرطبة
عن [illegible] اذا خرجت من [illegible] الاستكشاف [illegible]
[illegible] كما [illegible] الشمس
[illegible] الشمس [illegible] وانفتح [illegible] الباب [illegible] عالم الملكوت [illegible]
[illegible] مقامات الانبياء [illegible] الاولياء [illegible]
الانبياء فلنرجع الى الغرض والمقصود ان [illegible] الآخرة [illegible]
[illegible] بصيرة [illegible] الباطن [illegible]
الاعمال الصالحة [illegible] الشهوات [illegible] المعاصي [illegible] الدنيا
الدنيا على الآخرة [illegible] لان [illegible] الايمان [illegible] من [illegible]
[illegible] بان الآخرة خير من الدنيا [illegible]
[illegible] الايمان [illegible] قال [illegible]
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] الصالحات [illegible] الايمان
[illegible] الايمان [illegible] الى الدنيا [illegible]

المرضيين جميعا [illegible] الكافرين الذين [illegible] لذات الدنيا [illegible] الكافرين [illegible] لما

[illegible] امثالا للفريقين من الكافرين والمؤمنين جميعا لتذكر الفريقين بامثالهم [illegible] بالكافرين

والمؤمنين اما [illegible] الكافر [illegible] الله [illegible] في انفسهم وبالنعيم اذا كان [illegible]

[illegible] فيه [illegible] الا كما [illegible] تعالى [illegible] من [illegible] الرجلين [illegible]

او قال وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وجعل امرها كانه في

[illegible] الكافر [illegible] بالف دينار [illegible] اشترى بستانا بالف [illegible] بالف دينار [illegible]

على الف دينار وفي ذلك [illegible] اشتريت [illegible] الا اشتريت [illegible] الجنة

اشتريت بستانا [illegible] الا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى [illegible] لا يفنون ولا يموتون [illegible]

من الحور العين لا يمتن وفي ذلك [illegible] الكافر [illegible]

[illegible] ان يكون [illegible] في الآخرة خير [illegible] كذلك [illegible] الى قول العاص بن وائل [illegible] لأوتين

مالا وولدا قال الله تعالى [illegible] اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا [illegible] خباب بن الارت

انه كان له على العاص بن وائل دين [illegible] فقال [illegible] في الآخرة [illegible] اذا

صرت الى الآخرة فان لي [illegible] مالا وولدا فاقضيك منه فانزل الله تعالى [illegible] افرأيت الذي كفر بآياتنا

وقال لأوتين مالا وولدا [illegible] الكافر [illegible] ولئن رددت الى ربي [illegible]

وما اظن الساعة قائمة [illegible]

[illegible] لانهم [illegible] الى [illegible] الله تعالى [illegible] في الدنيا [illegible] الآخرة كما

قال تعالى ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير [illegible] المؤمنين

[illegible]

[illegible] الناس [illegible] الدنيا

[illegible] الدنيا [illegible] المستقبل [illegible]

[illegible] واما [illegible] المستقبل [illegible] الكرامة

[illegible] الله تعالى [illegible]

[illegible] في الدنيا [illegible] الله [illegible]

[illegible] الكرامة [illegible]

[illegible] الآخرة [illegible]

من الشواكل وملاذ الاطعمة التي تنشرح وتبقيه الاشربة التي تنتشر بها النفس بعضها ببعض كيف
يرى فيه لذته ما لا يحصل [illegible] الشيء [illegible] هذا [illegible] عجيب كم
لان ملك من شهوات [illegible] على جميع [illegible] من [illegible] العزيز
وهكذا [illegible] الدنيا [illegible] عن [illegible] الدنيا [illegible]
رسمة الطعام والشراب [illegible] كان ارباب البصائر [illegible]
[illegible] وذلك علامة [illegible] والاحوال [illegible] الامر [illegible]
[illegible] الدنيا [illegible] عنه [illegible] انه [illegible]
[illegible] الالتفات [illegible] بالاخرة [illegible] وما [illegible]
[illegible] عليه [illegible] ذلك [illegible]
[illegible] الكريم [illegible] هذا [illegible]
معرفة ولا [illegible] الكرامة [illegible] بالبصيرة واما بالتقليد اما بالبصيرة فبان يعرف [illegible] الالتفات
الى شهوات الدنيا [illegible] ذلك [illegible]
السابقين والاولياء [illegible] ولا يليق [illegible] واما معرفته بطريق
التقليد [illegible]
من [illegible] بل [illegible] وقال تعالى [illegible] لا [illegible]
[illegible] بكل [illegible]
[illegible] وقال تعالى [illegible]
[illegible] في [illegible]
في [illegible] هذا [illegible]
فان [illegible]
الارض [illegible] وقال تعالى فلولا
[illegible] الا [illegible]
[illegible]
[illegible] ذلك [illegible]
[illegible] هذا

الى ولده استعمل بجميع الذنوب على الدين كبر عند الختم بالشقاوة ان يكون ذلك دليل الخذلان ولكن ذلك الاشقا

لا يليق المؤمنين الشيطان بواسطة الفرع ليس بالقلب الى غاية التمسك والشوق بولاية على

الكرامة ومنها هو [illegible] الا الشافه [illegible] عن المؤمنين [illegible] الكريم وان [illegible]

[illegible] على ذلك [illegible] الاعمال [illegible] ذلك [illegible] ما [illegible] الاخيار

مقام [illegible] الذين [illegible] وسعة [illegible] في [illegible]

وانا [illegible] ومؤمنون [illegible] الايمان [illegible] المتمسك [illegible] الاباء وعلى

[illegible] كفر [illegible] سير آبائهم في الشرف [illegible] والتقوى [illegible] اكرم [illegible]

من آبائهم [illegible] مع عناية [illegible] كان [illegible] مع غاية الفجور والفسق [illegible]

نهاية الاعتزال بالمعصية من الشيطان [illegible] انه من اتبع [illegible] انا [illegible] الحكم

[illegible] لا يصلحون الى انما [illegible] عليه السلام [illegible]

السفينة فقال تعالى ان ابني من اهلي فقال انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح وان ابراهيم عليه السلام

استغفر لابيه فلم ينفعه وان [illegible] صلى الله عليه وسلم استاذن ربه في [illegible]

فاذن له الزيارة ولم يؤذن في الاستغفار فجعل يبكي على قبرها [illegible] بسبب القرابة [illegible]

اقرب الى الله تعالى وهذا لان الله يحب المطيع ويبغض العاصي فكما انه لا يبغض الابن المطيع [illegible]

للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي لاجل الاب المطيع ولو كان [illegible] الاب الى الولد

لا شك ان يرث البغض ايضا [illegible] لانه [illegible]

انه [illegible] الكعبة [illegible]

[illegible] يزال [illegible]

الاعلى [illegible] الشفاعة [illegible] كما سبق [illegible] الاكبر

[illegible] الصلاة [illegible]

فلهذا الكلام [illegible] ان الشيطان لا [illegible] الانسان الا [illegible]

[illegible] عليه السلام [illegible]

[illegible] نفسه [illegible]

[illegible] الشيطان [illegible] الذين

آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله [illegible] هنا

١١

[illegible] وكان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] هيهات هيهات [illegible]
[illegible]
[illegible] هيهات هيهات [illegible]
[illegible] وكان [illegible] الدنيا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] سكرات الموت [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الرحمن الرحيم [illegible]

بالانابة الى الله تعالى ولى قد تاب فاذا اصر على المعصية على التوبة فهو راجع فان ترك [illegible]
الاصل [illegible] من كان من [illegible] عليه [illegible] الجمعة وهي [illegible] التوبة [illegible] الى [illegible]
[illegible] الا [illegible] الجمعة [illegible] على [illegible] الجمعة
[illegible] على الطاعة [illegible] الصلاة [illegible] الاول [illegible]
[illegible] الاعمال [illegible]
[illegible] الله تعالى [illegible] المسلمين [illegible] من [illegible] العبادة [illegible]
[illegible] قوله تعالى [illegible] المؤمنين [illegible] في صلاتهم خاشعون [illegible]
[illegible] عن اللغو معرضون [illegible]
[illegible] من [illegible] العبادة [illegible]
[illegible] العبادة [illegible] الذنب [illegible]
[illegible] الشهوات [illegible] عن [illegible]
[illegible] على [illegible] الخوف [illegible]
[illegible] الذنب شديد العقاب [illegible] في النار ابدا الآبدين [illegible]
[illegible] العذاب [illegible]
[illegible] في عبادة [illegible] لا [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] الخلق [illegible] في الدنيا [illegible] الله تعالى [illegible]
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] على [illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] كان الناس في الاعصار الاول [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] الله تعالى [illegible] عن الشبهات والشهوات [illegible] على [illegible]
[illegible] الآن [illegible] الخلق [illegible] على [illegible]
في الدنيا [illegible] من الله تعالى [illegible]
كانهم [illegible] الصحابة والسلف الصالحين فان
كان هذا الامر [illegible] بالحق [illegible] كان [illegible]

تحقيق هذا الغرور في كتاب الرجاء والخوف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى معقل بن
يسار يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما يخلق الثياب على الابدان يكون
امرهم كله طمعا لا خوف معه ان احسن احدهم قال يتقبل مني وان اسا قال يغفر لي فاخبر انهم
يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه وبمثله اخبر عن النصارى اذ قال
تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا
ومعناه انهم ورثوا الكتاب اي هم علما ويأخذون عرض هذا الادنى اي شهواتهم من الدنيا حلالا
كان او حراما وقد قال الله تعالى ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد والقرآن من اوله الى آخره
تخويف وتحذير لا يتفكر متفكر الا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه وترى الناس
يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على رفعها وخفضها ونصبها وكانهم
يقرءون شعرا من اشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيها والعمل بما فيها وهل في العالم
غرور يزيد على هذا فهذه امثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه طوائف
لهم طاعات ومعاصي الا ان معاصيهم اكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون انهم ترجح كفة حسناتهم
مع ان ما في كفة السيئات اكثر فهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة
من الحلال والحرام ويكون ما يتناوله من اموال المسلمين والشبهات اضعافه ولعل ما تصدق
به من اموال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن ان اكل الف درهم حرام لا يقاومه التصدق بعشرة
من الحلال او الحرام وما هو الا كمن وضع عشرة دنانير في كفة ميزان وفي الاخرى الفا واراد
ان يشيل الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله ومنهم من يظن ان طاعاته
اكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد
بها كالذي يستغفر الله بلسانه او يسبح الله مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم
ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ويكون نظره الى عدد سبحته انه استغفر الله
مائة مرة ويغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة او الف
مرة وقد كتبها الكرام الكاتبون وقد وعده الله تعالى العقاب على كل كلمة فقال تعالى ما
يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهو ابدا يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات
ولا يلتفت الى ما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين بذكر ما لا
يعنيه الى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون

يطلبون منه اجرة النسخ لما يكتبونه من هديانه الذي زاد على نسخه لكان عنده ذلك يكفي نسيانه
حتى عن جلامن مهاته وما نطق به في لسانه كان بعدها وحسبها وبلا زنها بتسبيحاته حتى لا
يفضل عليه اجرة نسخه فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته في الاجرة
على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الاعلى ونعيمها ما هذه الا مصيبة عظيمة لمن تفكر
فيها فقد دفعنا الى امران شككنا فيه كنا من الكفرة المكذبين وان صدقنا به كنا من الحمقاء
المغرورين فما هذه اعمال من يصدق بما جاء به القرآن وانا نبرا الى الله ان نكون من اهل الكفر
فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما اجدر من يقدر على تسليط مثل
هذه الغفلة والغرور على القلوب ان يخشى ويتقى ولا يغتر به اتكالا على اباطيل المنى وتعاليل
الشيطان والهوى بيان اصناف المغترين واقسام فرق كل صنف الصنف الاول
اهل العلم والمغترون منهم فرق ففرقة احكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا
بها واهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي وان امها الطاعات واغتروا بعلمهم فظنوا
انهم عند الله بمكان وانهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يشفع في الخلق
شفاعتهم وانه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا
بعين البصيرة علموا ان العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته ويسمى
المسمى بالعادة علم المعرفة فاما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة اخلاق النفس
المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى العمل
لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها
الا دواء مركب من اخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطباء فسعى في طلب الطبيب بعد ان هاجر
عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وانواعها ومقاديرها ومعادنها
التي منها تجلب وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب
منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم
يشربها ولم يستعملها افترى ان ذلك يغني عنه من مرضه شيئا هيهات لو كتب منه الف نسخة وعلمه
الف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا الا ان يزن الذهب
ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد
تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف اذا لم يشربه

فهاظن ان ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي احكم علم الطاعات ولم
يعملها واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها واحكم علم الاخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها واحكم علم
الاخلاق المذمومة وما زكى المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور اذ قال الله تعالى قد افلح من زكيها
ولم يقل قد افلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس وعند هذا يقول له الشيطان
لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل المرض وانما مطلبك القرب من الله وثوابه
والعلم جالب للثواب ويتلو عليه الاخبار الواردة في فضل العلم فان كان المسكين معتوها مغرورا
وافق ذلك مراده وهواه فاطمان اليه واهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان اتذكرني فضائل
العلم وتنسى ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فمثله كمثل الكلب وكقوله
تعالى مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا فاي خزي اعظم من التمثيل
بالحمار والكلب وقد قال صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا
بعدا وقال عليه السلم يلقى العالم في النار فتندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى وكقوله
عليه السلم شر الناس العلماء السوء وقوله عليه السلام ويل للذي لا يعلم ولو شاء الله لعلمه وويل
للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات اي ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله
وقال صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه وهذا وامثاله مما اوردناه في
كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة اكثر من ان يحصى الا انها لا توافق هوى العالم الفاجر
وما ورد في فضائل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يميل اليه وذلك عين الغرور فانه ان
نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذي اخبر بفضيلة العلم هو الذي اخبر
بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله اشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده انه على خير مع
تاكد حجة الله عليه غاية الغرور واما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وصفاته واسمائه
وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع امر الله وحدوده فغروره اشد ومثاله مثال من اراد خدمة ملك فعرف
الملك وعرف اخلاقه واوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه
ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به او عرف ذلك الا انه قصد خدمته وهو ملابس لجميع
ما يغضب به وعاطل عن جميع ما يحب من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو
يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا
بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وشكله وصورته وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا

حظ واحدا اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يحبه ويكرهه لكان ذلك اقرب
الى نيل المراد من قربه والاختصاص به بل هم في التشهي واتباع الشهوات يدل على انهم لم يعرفوا
الله تعالى الا الاسامي دون المعاني اذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه ولا
ان يعرف الاسد عاقل ثم لا يخافه لا يخشاه وقد اوحى الله تعالى الى داود عليه السلم خفني كما
تخاف السبع الضاري نعم من يعرف من الاسد لونه وشكله واسمه فقد لا يخافه فكانه ما عرف
الاسد فمن عرف الله عرف من صفاته انه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم انه مسخر في قدرة
من لو اهلك مثله الالاف المؤلفة وابد عليهم العذاب ابد الاباد لم يؤثر ذلك فيه اثرا ولم ياخذه
عليه رقة ولا اعتراه جزع ولهذا قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور راس
الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وسئل الحسن
عن مسئلة فاجاب فقيل ان فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رايت فقيها قط الفقيه القائم
ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا وقال مرة الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فان قبلت
منه حمد الله وان ردت حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن الله امره ونهيه وعلم من صفاته ما احبه
وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين فاذا لم يكن بهذه الصفة فهو من
المغرورين وفرقة اخرى احكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي
الا انهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء
وطلب الرياسة والعلاء وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما
لم يعرف بعضهم ان ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت الى قوله صلى الله عليه وسلم
ادنى الرياء شرك والى قوله عليه السلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر والى قوله
عليه السلام الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب والى قوله عليه السلم حب المال
والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل الى غير ذلك من الاخبار التي اوردناها في
ربع المهلكات في الاخلاق المذمومة فهؤلاء زينوا ظواهرهم واهملوا بواطنهم ونسوا قوله
عليه السلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم فتعهدوا
الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من اتى الله بقلب سليم ومثال
هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن وكقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة
وكبيت مظلم باطنه وضع السراج على ظاهره حتى استنار ظاهره وكرجل قصد الملك ضيافة الى

دان يجصص باب داره وان ترك المزابل في صدر داره ولا يخفى انه اذا كثر فيها سرى الى بيت المال بحال
يزرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من اصله
فاخذ يجز راسه ويقطعه فلا يزال يقوى اصله وينبت لان مغارس المعاصي هي الاخلاق الذميمة
في القلب فمن لا يطهر القلب منها لم تتم له الطاعات الظاهرة الا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض
ظهر به الجرب وقد امر بالطلاء فترك الدواء وبقي يتناول ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر
والجرب دايم به يتفجر من المادة التي في الباطن وفرقة اخرى علموا هذه الاخلاق الباطنة وعلموا
انها مذمومة من جهة الشرع الا انهم لعجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وانهم ارفع عند
الله من ان يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم فاما هم فاعظم
عند الله من ان يبتليهم ثم اذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا ما هذا
كبرا وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام انف المخالفين من المبتدعين
واني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمتت بي اعداء الدين وفرحوا
وكان ذلي ذلا على الاسلام ونسي المغرور ان عدوه الذي حذره مولاه هو الشيطان وانه يفرح بما
يفعله ويسخر به وينسى ان النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا ارغم الكافرين وينسى ما
روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضي الله عنه
في بذاذة زيه عند قدومه الى الشام فقال انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز في غيره
ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والدبيقي والابريسم المحرم والخيول
والمراكب ويزعم انه يطلب عز العلم وشرف الدين وكذا اذا اطلق اللسان بالحسد في اقرانه
او فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه ان ذلك حسد ولكن قال انما هذا غضب للحق ورد
على المبطل في عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يمتحن نفسه انه لو طعن في غيره من اهل
العلم او منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه مثل غضبه الآن فيكون غضبه
لله او ما طعن في عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من
خبث باطنه وهكذا قد يرائي باعماله وعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات انما غرضي اظهار
العلم والعمل ليقتدي الخلق بي ليهتدوا الى دين الله فيتخلصوا من عقاب الله ولا يتامل المغرور
انه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم
على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم لم يفرق بين ان يحصل شفاؤهم على يده او على

يدعي بسبب آخر ربما يذكر هذا ولا يغلب الشيطان ايضا اما ذلك لانهم اذا اشتغلوا به كانوا الاجهر في
ما انوا به فانا نرى ... لا يقبل الخلق منه الا ما يطلب لنفسه وليصطنع من غيره على انه الشيء
نحن بان نواجه في الخلق والمختار الصالح اكثر من شواهد في الاظهار فيجيبه مع ذلك في محل حريد بالاكل
لا يشتغل الا فيه صوم الحين ... حتى يرجع الى منصبه الذي ... تعظيمها ... من يرد به
وهذا اوضح وكذلك يدخل على السلطان ويتردد اليه ويثني عليه ويتواضع له واذا خطر له ان التواضع
للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع في مالهم فاما انت فغرضك
ان تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر اعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه انه لو ظهر لبعض
اقرانه قبول عند السلطان فصار يشفع في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك
عليه ولو قدر على ان يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهي
بعضهم الى ان ياخذ من مالهم واذا خطر له انه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح
المسلمين وانت امام المسلمين وعالمهم وبك قوام دين اهل الاسلام كان ان تاخذ قدر حاجتك فيغتر بهذا
التلبيس في ثلاثة امور احدها في انه مال لا مالك له فانه يعرف انه ياخذ الخراج من المسلمين واهل الذمة
والذين اخذ منهم احياء قيام واولادهم وذريتهم احياء وغاية الامر وقوع الخلط في اموالهم ومن غصب
مائة دينار من عشرة انفس وخلطها فلا خلاف في ان هذا المال حرام ولا يقال انه مال لا مالك له
ويجب ان يقسم بين العشرة ويرد الى كل واحد عشرة وان كان لكل واحد منهم اختصاص بالآخر ...
في ... انه من مصالح المسلمين وبك قوام الدين فلعل الذين فسد دينهم واستحلوا اموال السلاطين
ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والاعراض عن الآخرة بسببه اكثر من الذين زهدوا
في الدنيا ورفضوها واقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا
الدين اذ الامام هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالانبياء والصحابة وعلماء
السلف والدجال هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موته انفع
للمسلمين من حياته وهو يزعم انه قوام الدين ومثاله كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام للعالم
السوء انه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع واصناف
غرور اهل العلم في هذه الاعصار والفرق المتاخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على
الكثير وفرقة اخرى احكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي
وتفقدوا اخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو وجاهدوا

اشتم في البري منها فغفرات القلوب منابتها الخفية الشرور ولكنهم بعد مزيد ورث او نبتت في زوايا
القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض ومن ذلك ظنهم انهم انما اطلعوا عليها
ما غاب الا عن ربهم شبه الشيخ من الحشيش فدل عليه وبحث عن كل حشيش رآه فقلعه الا انه لم
يفتش عن ما لم يخرج راسه بعد من تحت الارض فظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبتت من اصول
الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد طهرها فاذا هو بها
في غفلته وقد نبتت وقويت وافسدت اصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع
ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها
وتحسين الفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله ونشر
شريعته ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الآفاق
وانطلاق الالسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وايثاره في
الاغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء مع حسن اللفظ والايراد والتمكن من تحريك
الرؤوس على كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والمستفيدين والتفرد بالتخصيص
بهذه الخاصية من بين سائر الاقران والاشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به
من اطلاق لسان الطعن في كافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن ادلال
التميز والاعتداد بالتخصص ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من امر الامامة
والمشيخة والانقياد ولو تغير حسن ثناء الناس عليه بما اعتقدوا فيه من الزهد بما يظهر من اعماله
فساء [illegible] عليه قلبه واختلط اوراده ووظائفه وصار يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج
الى ان يكذب في تغطيته عيبه وصار يؤثر الكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان
كان فاسقا [illegible] فيه فوق قدره ويتنبأ قلبه عن من فضله وورعه وان كان ذلك على وفق ما
يؤثر بعض اصحابه على بعض وهو يرى انه يؤثره لمزيده في الفضل والورع وانما ذلك لانه اطوع
له واتبع لمراده واكثر ثناء عليه واشد اصغاء اليه واحرص على خدمته والعلماء يستفيدون منه
ويرغبون في العلم وهو يظن ان قبولهم له لاخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما
يسر له من منافع خلقه ويرى ان ذلك مكنه من المقربين ويتفقد من نفسه تصحيح النية فيه وهو
لو وعظ مثل ذلك الواعظ من اقرانه الخواص والعزلة والمضيا بالصمم لم يرغب فيه لتعنته في العزلة ولا
خفاء لذة القبول وعز الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من ابن آدم انه بعلمه

اشتغل مع فضيلته في بيان وصنفا بصنفه ويجتهد فيه لما انه جمع علم الله لينتفع به وانما يريد
به استطالة اسمه عن المصنف فلو راى من يمدح تصنيفه ويعرض عن اسمه ونسبه الى نفسه ثقل عليه
وذلك مع علمه بان ثواب الاستفادة من التصنيف انما يرجع الى المصنف والله عالم بانه المصنف لا من
ادعاه ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثنا على نفسه اما صريحا بالدعاوي الطويلة العريضة واما
ضمنا بالطعن في غيره ليستبان من طعنه في غيره انه افضل ممن طعن فيه واعظم منه علما ولقد كان
في غنية من الطعن فيه ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه الى قائله وما يستحسنه
فلعله لا يعزيه اليه ليظن ان من كلامه فينقله بعينه كالسارق له او يغيره ادنى تغيير كالذي
يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف انه مسروق ولعله يجتهد في تزيين الالفاظ وتسجيعه وتحسين
نظمه كيلا ينسب الى الركاكة ويرى ان غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون اقرب الى نفع
الناس وهو غافل عما روي ان بعض الحكماء وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة فاوحى الله الى نبي
زمانه قل له قد ملات الارض نفاقا واني لا اقبل من نفاقك شيئا ولعل جماعة من هذا الصنف
من المغترين اذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة من عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع
كل واحد منهم فرقة من اصحابه نظر كل واحد الى كثرة من يتبعه وانه اكثر تبعا من غيره فيفرح ان كان
اتباعه اكثر وان علم ان غيره احق بكثرة الاتباع منه ثم اذا تفرقوا واشتغلوا بالافادة تغايروا وتحاسدوا
ولعل من يختلف الى واحد منهم اذا انقطع عنه الى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه
فبعد ذلك لا يهتز باطنه لاكرامه ولا ينتشر لقضاء حوائجه كما كان ينتشر من قبل ولا يحرص على الثناء
عليه كما كان مع علمه انه مشغول بالاستفادة ولعله انحرف عنه الى فئة اخرى كانت انفع له في دينه
لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته منها في تلك الفئة ومع ذلك فلا يزول
النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم اذا تحرك فيه مبادي الحسد لم يقدر على اظهاره فيتعلل بالطعن
في دينه وفي ورعه ليحيل غضبه على ذلك ويقول انما غضبت لدين الله لا لنفسي ومهما ذكرت عيوبه
بين يديه ربما فرح به وان اثني عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه اذا ذكرت عيوبه يظهر انه
كاره لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك فهذا وامثاله من
خفايا القلوب لا يفطن لها الا الاكياس ولا يتنزه عنها الا الاقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من
الضعفاء الا ان اقل الدرجات ان يعرف الانسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص
على اصلاحه فاذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو

مرتجل العمال وامر الرياسات المغرور المذكور نفسه الفتن على ادمعلوم وعلمه الطاعات انه من خيار خلقه
بالعبادات المتقنة والاقوال الحسنة المحررة عن افات القلوب مع الاعمال هذا غرور الذين حصلوا العلوم
المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم
وهم به مغترون اما لاستغنائهم عنه اذ كلفه واما لاتكالهم عليه فمنهم فرقة اقتصروا على
علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح
المعايش وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال
الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل
عن المشي الى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر
المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين احدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم اما العمل فقد
ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه
لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ويحتاج الى تعلم الدواء واستعماله
فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بانه رجل لا يحيض ولا يستحيض
ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عنها وذلك غاية الغرور فكذلك المتفقه
المسكين قد يتسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات
الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله
واشتغل بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات
وبكتاب الحيض ولا يحتاج الى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه واذا احتاج غيره كان في المفتين
كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه حب الجاه والمال والرياسة وقد دهاه الشيطان وما يشعر
اذ يظن المغرور بنفسه انه مشغول بفرض دينه وليس يدري ان الاشتغال بفرض الكفاية قبل
الفراغ من فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وكان قد قصد بالفقه وجه الله
فان كان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من
حيث العمل واما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن انه علم الدين وترك علم كتاب
الله وسنة رسوله وربما طعن على المحدثين وقال انهم نقلة اخبار وحملة اسفار لا يفقهون وترك ايضا علم
تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله بادراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف
والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على انه لا بد وان يرحمه فانه

تعالى ودينه وانه لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلم الذي هو اهم وهو ما قال
وجبنا خوفه وما سمع من الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر ان ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة
صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى وانه قال الله تعالى فلولا نفر من كل
فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم والذي يحصل به الانذار
غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال
ودفع القتل والجراحات والمال في طريق الله آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق
وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة هي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى واذا مات
ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك
طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك في انه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من
الحاج في شيء ومن هذا كما سمع ذكر في كتاب العلم ومن جملة من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات وهم
بينه الاهم طريق المجادلة والالزام وافحام الخصم ودفع الحق لاجل الغلبة والمباهاة فهو طول
الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات ارباب المذاهب والتفقد لعيوب الاقران والتلقف
لانواع التشنيعات المؤذية وهؤلاء هم سباع الانس طبعهم الايذاء وهمهم السفه ولا يقصدون
العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الاقران فكل علم لا يحتاجون اليه في المباهاة كعلم القلب
وعلم سلوك الطريق الى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالصفات المحمودة فانهم
يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ وانما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي
جرت بين المتناظرين في الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى ولكن
زادوا اذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات ايضا بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها
السلف واما الجملة في الاحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفهم معانيه واما حيل الجدل من الفصل والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فانما ابدع
لاظهار الغلبة والافحام واقامة سوق الجدل به فغرور هؤلاء اشد كثيرا واقبح من غرور من قبلهم
وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الاهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا
من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعليم الطريق في مناظرة اولئك وافحامهم وافترقوا في ذلك
فرقا كثيرة واعتقدوا انه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمانا الا بان يتعلم جدلهم وما سموه ادلة عقائدهم
وظنوا انه لا احد اعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ودعت كل

رفعتهم الى نفسه ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة التي يدعو الى غير السنة والمحقة هي التي تدعوا
الى السنة والتعصب لاهل السنة لسان الضالة فتنقطع ضلالتها خلفها تبعها الجفاة وهم فرق
كثيرة يكفر بعضها بعضا واما الفرقة المحقة فمن حيث انهم لم يتهموا وليسوا بالحكم او لا بتزويق الادلة وتهذيبها
زايات الشبهة دليلا والدليل شبهة واما الفرقة المحقة فانما الفتنة فيها من حيث انها اعتقدت بالجدل انه اهم
الامور وافضل القربات في دين الله وزعمت انه لا يتم لاحد دينه ما لم يفحص ولم يبحث فان من صدق
ودين الله من غير بحث وتحرير الدليل فليس بمؤمن او ليس بكامل ولا مقرب عند الله وهذا الظن الفاسد
قطعت اعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم واهملت
نفسه وقلبه حتى عمي عليه ذنوبه وخطاياه الظاهرة والباطنة وهو يظن ان اشتغاله بالجدل اولى واقرب
عند الله وافضل ولكنه لالتذاذه بالغلبة والافحام ولذة الرياسة وعز الانتماء الى الله سبحانه عن
انه عميت بصيرته فلم يلتفت الى القرن الاول وان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق
وانهم قد ادركوا كثيرا من اهل البدع والهوى فما جعلوا اعمارهم ودينهم عرضا للخصومات والمجادلات
وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وذلك بجوارحهم واحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا حيث رأوا حاجة
وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته فاذا رأوا مصرا على ضلالته هجروه
واعرضوا عنه وابغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا ان الحق هو الدعوة
الى السنة ومن السنة ترك الجدل فيه فان الدعوة الى السنة الحق روى ابو امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على اصحابه وهم
يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كانه فقئ في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال ألهذا
بعثتم أبهذا أمرتم ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما امرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه
فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا اولى خلق الله بالحجاج والجدل ثم انهم لما نزل الله على رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقد بعث الى كافة اهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لالزام والافحام وتحقيق حجة
ودفع سؤال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القرآن المنزل عليه ولم يزد في المجادلة عليه لان
ذلك يشوش القلب ويستخرج منها الاشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان
يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وان يعلم اصحابه كيفية الجدل والالزام ولكن كان
اهل الحزم لم يستعملوا هذا وقالوا لو جاءنا اهل الابتداع وهكذا لم ينفعنا خبا ثم رجعونا هكذا
لم يغيروا ما عندكم ولم يرد علينا في المجادلة اكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى واهل الملل وما

متين الصبر وجاه لا تتم فالتصنيع الصبر ولا صبر به الى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا فلم يحرص
في الامر على انفسنا اعظم اثر في تفاصيله ثم يرى ان المبتدع ليس يترك بدعته بقوله او بين المذهب
والمشورة تنبه الى بدعته واشتغالي بمخاصمة نفسي ومجاهدتها ومحاسبتها لترك الدنيا الاخرة
اولى فعلي لكنت لم انه عن البدعة والمشورة فكيف وقد نهيت عنه فكيف ادعو الى السنة وترك
السنة فالاولى ان اتعهد نفسي وانظر من صفاتها ما يبغضه الله وما يحبه لاتنزه عما يبغضه واتشبث
بما يحبه وفرقة اخرى اشتغلوا بالوعظ واعلاهم رتبة من يتكلم في اخلاق النفس وصفات القلب
من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد والاخلاص والصدق ونظائرها وهم مغرورون
يظنون بانفسهم انهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بهذه
الصفات وهم منفكون عنها عند الله الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين وغرور هؤلاء
اشد الغرور لانهم يعجبون بانفسهم غاية الاعجاب ويظنون انهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم محبون
لله تعالى وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب
النفس الا وهم عنها منزهون ولولا انه متقرب عند الله لما عرف معنى القرب والبعد وعلم السلوك الى الله
فكيف قطع المنازل في طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يرى انه من الخائفين وهو آمن من
مكر الله تعالى ويرى انه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ويرى انه من الراضين بقضاء الله
تعالى وهو من الساخطين ويرى انه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والاسباب
ويرى انه من المخلصين وهو من المرائين بل يصف الاخلاص فيترك الاخلاص في الوصف فيكون مرائيا بذكره
ويرائي بذكره ليعتقد فيه انه لولا انه مخلص لما اهتدى الى دقائق الرياء ويصف الزهد في الدنيا
لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها وهو يظهر الدعاء الى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى
وهو منه آمن ويذكر الله وهو له ناس ويقرب الى الله وهو منه متباعد ويحث على الاخلاص وهو غير
مخلص ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق
اشدهم حرصا لو منع من مجلسه الذي يدعو فيه الناس الى الله لضاقت عليه الارض بما رحبت
ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق ولو ظهر من اقرانه من اقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات
غما وحسدا ولو اثنى احد من المترددين عليه على بعض اقرانه لكان ابغض خلق الله اليه فهؤلاء اعظم الناس
غرورا وابعدهم عن التنبه والرجوع الى السداد لان المرغب في الاخلاق المحمودة والمنفر عن المذموم
بصير بآفاتها وفوائدها وقد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك

٦١٩

باذا اصابع وكيف سبيل تخويفه بلنا الخوف ما يتلى على عباده ليخافون وعلى هذا يخافهم ان
بنفسه انه موصوف بهذه الصفات المرجوة يمكن ان يدل على طريق الاتفاق والقرب وهل ان يدعي
ثلا حب له تعالى فالذي تركه من حب الدنيا لاجله ويدعي الخوف فالذي امتنع عنه بالخوف
ويدعي الزهد فالذي امتنع منه بالخوف ويدعي الزهد فالذي تركه مع القدرة عليه لاجله تعالى
ويدعي الانس به فهو طلبت له الخلوة وهل استوحش من مشاهدة الخلق الا لربما قلبه مبتلا
بالحلاوة اذا الصدق به المريدون ربما يستوحش اذ الملا بامثالي فهل ليت عجبا انا يستوحش
من محبوبه ويستريح منه الى غيره فالاكياس يخبرون انفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بما
ولا يشفعون منها بالتزويق بل يرون من الله غيظ والمغرورون يحسنون بانفسهم الظنون فاذا كشف
الغطا عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فيدعيه كما يدور الحمار فالرحا كما ورد
به الخبر لانهم يامرون بالخير ولا ياتونه وينهون عن الشر وياتونه وانما وقع التزهيد لهؤلاء من حيث
انهم يصادرون من قلوبهم شيئا ضعيفا من اصول هذه المعاني كحب الله والخوف منه والانس
بشيء لم [illegible] ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني وظنوا انهم ما قدروا على وصف
ذلك [illegible] الله [illegible] الناس بكلامهم فيها الا لاتصافهم بها فتعجب لهم ان الفرق بين
الكلام والكلام المعرفة وبين [illegible] للمتعلم فان كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فهم [illegible]
آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل ربما زاد [illegible]
[illegible] الخلق [illegible] في قلبه حب الله تعالى [illegible] المريض يصف
المرض [illegible] بفصاحته وصف الصحة والشفاء والصحيح [illegible] لا يقدر على وصف الصحة
والشفاء واسبابه [illegible] لاتصافهم في صفة المرض والاتصاف به وانما
[illegible] في الوصف والعلم بالطب [illegible] غاية الجهل فكذلك
العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وساير هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها [illegible]
الشرع عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو [illegible] الذين لا حث
في كلامهم بل [illegible] وحفظ القرآن والاخبار وحفظ السنن [illegible]
اخرى انهم [illegible] المنهاج [illegible] اهل الايمان [illegible]
[illegible] في بعض اطراف البلاد انه كان [illegible] فاشتغلوا بالطامات والشطح [illegible] كلما
خارجة عن [illegible] الشرع والعقل [illegible] الالباب [illegible] الا انا

ودنيتها فاكثرهم في الابداع والاستشهاد باشعار الوصال والفراق ومنهم ان يكون في كلامهم
الشطحات والتوليد وعلى الخواطر فاسدة فهؤلاء شياطين الانس ضلوا واضلوا عن سواء السبيل
فان الاولين ان لم يصلحوا انفسهم فقد اصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم واما هؤلاء فانهم يصدون
عن السبيل ويجرون الخلق الى الشهوات تغليبا بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي
ورغبة في الدنيا لا سيما اذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمركب فيشهد حاله من قرنه الى قدمه
بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور اكثر مما يصلحه بل لا يصلح اصلا ويضل خلقا كثيرا ولا
يخفى وجه كونه مغرورا وفرقة اخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد واحاديثهم في ذم الدنيا ثم
يحفظون الكلمات على وجهها ويرددونها من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر
وبعضهم في المحاريب وبعضهم في الاسواق مع الجلساء وكل منهم يظن انه اذا تميز بهذا القدر عن
السوقة والجندية اذ حفظ كلام الزهاد واهل الدين دونهم فقد نال الغرض وصار مغفورا
له وامن عقاب الله من غير ان يحفظ ظاهره من الآثام ولكنه يظن ان حفظه كلام اهل الدين
يكفيه وغرور هؤلاء اظهر من غرور من قبلهم وفرقة اخرى استغرقوا
اوقاتهم في علم الحديث اعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منها وطلب الاسانيد الغريبة العالية
فهمة احدهم ان يدور في البلاد ليرى الشيوخ ليقول انا اروي عن فلان وقد رأيت فلانا ومعي
من الاسناد ما ليس مع غيري وغرورهم من وجوه منها انهم كحملة الاسفار فانهم لا يصرفون العناية
الى فهم معاني السنة فعلمهم قاصر وليس معهم الا النقل ويظنون ان ذلك يكفيهم ومنها انهم اذا
لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها ايضا ولا يعملون بها ومنها انهم يتركون العلم الذي
هو فرض عين عليهم وهو معرفة معالجة القلب ويشتغلون بتكثير الاسنادات وطلب الاسانيد
العالية ولا حاجة بهم الى شيء من ذلك ومنها وهو الذي اكب عليه اهل الزمان انهم ايضا لا يقومون
بشرط السماع فان السماع مجردا وان لم يكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول الى اثبات
الحديث اذ التفهم بعد الاثبات والعمل بعد التفهم فالاول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم
النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع فترى الصبي يحضر في مجلس
الشيخ والحديث يقرأ والشيخ نائم والصبي يلعب ثم يكتب اسم الصبي في السماع فاذا كبر تصدى
ليسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث مع
والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف او غير ما يقرأ عليه لم يشعر ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل

في الحديث ان يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما يسمعه ويؤديه كما حفظه فيكون الرواية
عن الحفظ والحفظ عن السماع فان حدثت من سامعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة
او التابعين مصادر سماعك من الراوي كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ان تحفظ الحفظ
ما تحكيه كما حفظته وتحفظه كما سمعته بحيث لا تغير فيه شيئا ولا تغير منه حرفا ولفظا عن لفظ
وللحفظ طريقان احدهما ان تحفظه بالقلب وتستديمه بالتكرار كما تحفظ ما يجري على سمعك
في مجاري الاحوال والثاني ان تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا يصل اليه يد من يغيره
ويكون حفظك للكتاب بعدك وفي خزانتك فانه لو امتدت اليه يد غيرك ربما غيره واذا لم تحفظه لم يشعر
بتغيره ويكون بعدك محفوظا بقلبك او بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير
والتحريف فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس
ثم رأيت لذلك نسخة وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا او مباينا في حروف منه النسخة التي سمعتها لم يجز
لك ان تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل شيئا يخالف ما فيه ولو في
كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لمقابلتها فمن اين تعلم
انك سمعت ذلك وقد قال تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان
اخبرنا اما في هذا الكتاب اذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه كذب صريح واقل شروط السماع ان
يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر بالتغيير ولو جاز ان يكتب سماع الصبي والغافل
والنائم والذي ينسخ لجاز ان يكتب سماع الصبي في المهد وسماع المجنون ثم اذا بلغ الصبي او افاق
المجنون سمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز ان يكتب سماع الجنين في البطن
فان كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ فالصبي الذي يلعب والغافل
والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وان استجرأ جاهل وقال يكتب سماع الصبي
في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن فان زعم ان الجنين لا يسمع الصوت وهذا
يفهم الصوت فاذا لم يفهم هذا وهو انما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذا صار شيخا
على ان يقول سمعت وهو صبي انك في صباي حضرت مجلسا روي فيه حديث كان يقرع
سمعي صوته ولا ادري ما هو ولا خلاف في ان الرواية كذلك لا تنفع وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو
جاز اثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لانه سمع صوتا مغفلا لجاز اثبات سماع الصبي في المهد
وذلك غاية الجهل ومن اين يجد هذا وهل السماع مستندا الا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فراوه امر اسمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها وكيف يؤديه كما سمعها من لايدري ما سمعه فهذا
وامثاله انواع الغرور وقد ابتلي به اهل الزمان ولو احتاط اهل الزمان لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوا
في الصبي على هذا الوجه من الغفلة الا ان للمحدثين في ذلك جاها وحشمة لانهم لو
شرطوا ذلك فقل من يجتمع فيه شرطهم فينقص جاههم ويقل ايضا اسانيدهم العالية فاصطلحوا على
هذا الشرط بل ربما مدحوا ذلك واقتصروا واصطلحوا على انه ليس بشرط الا ان يكتب سمعه
ودونه وان كان لايدري ما جرى وصحة السماع لا يعرف من قول المحدثين لانه ليس من علمهم بل من علم
اصول الفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين اصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ولو صبروا على الشرط
كانوا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي افنائهم العمر في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم
عن مهمات الدين ومعرفة معاني الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما
يكفيه الحديث الواحد عمره كما روي عن بعض الشيوخ انه حضر مجلس السماع فكان اول حديث روي
قوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى افرغ منه
ثم اسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس الذين يحذرون الغرور وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم
النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا انه قد غفر لهم وانهم من علماء الامة اذ قوام
الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فافنوا اعمارهم في دقائق
النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط
وتقويم الحروف وتحسينها ويزعم ان العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتحسينها
ولو عقل لعلم انه يكفيه ان يتعلم اصل الخط بحيث يمكن ان يقرأ كيف ما كان والباقي زيادة
على الكفاية وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في لغة العرب
كالمضيع في لغة الترك والهند وانما فارقهم لاجل ورود الشريعة فيكفي من اللغة علم الغريبين
في الاحاديث ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فاما التعمق فيه الى درجات لا نهاية لها فضول
مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه واعرض عن معرفة المعاني الصحيحة والعمل بها فهو ايضا مغرور بل مثاله
مثال من يضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف
المعاني والحروف ظروف وادوات ومن احتاج الى ان يشرب السكنجبين ليزيل ما به من الصفراء
وضيع اوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور
اهل النحو واللغة والادب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها

او يحتجوا عليها اكثر مما يحتاج اليه في قسم العلوم التي هي فروض كفايات فالاقصى هو العلم بالدقايق
فيه موجهة العمل كالمنشر المهمل كالكتب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو جامع الالفاظ من
طريق الرواية بالاضافة الى المعرفة بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو العلم بالمعنى
وفوق ذلك وهو المعرفة للشبه الحروف والمتاهة بهذه الدرجات كلهم معترفون
الاين اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فجاوز الى ما وراء حتى يصل
الى لباب العمل فطالب حقيقة العمل فيه ويجتهد في تخليص العمل عليه فهم الاعمال
من الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم تحوم دونه وسائل
اليه ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب
او في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها اربابها فاما علم الطب
والحساب والصناعات وما يعلم انه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد اصحابها انهم ينالون المغفرة
بها من حيث انها علوم فكان الغرور بها اقل من الغرور بعلوم الشرع لان العلوم الشرعية مشتركة
في انها محمودة كما يشترك الشراب في كونه محمودا ولكن المحمود منه ما هو المقصود والثاني محمودا
لوصوله الى المقصود فمن اتخذ مقصدا او عرج عليه فقد اغتر به وفرقة اخرى استغرقوا اوقاتهم
في علم الفقه فظنوا ان حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فاحكموا الحيل في
دفع الحقوق واساءوا تاويل الالفاظ المبهمة واغتروا بالظاهر واخطأوا فيها وهذا من جنس
الغلط في الفتوى ما الغلط فيه ما الغلط في الفتاوي ولكن هذا نوع عم الكافة الا
الاكياس منهم فنشير الى امثلة فمن ذلك فتواهم بان المرأة مهما ابرأت عن الصداق برئ الزوج
منه بينه وبين الله وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء الى الزوجة بحيث يضيق عليها الامور بسوء الخلق
فتضطر الى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص فهو ابراء لا عن طيبة نفس وقد قال الله تعالى
فان طبن لكم عن شيء منه نفسا وطيبة النفس غير طيبة القلب فان القلب قد يريد ما لا تطيب
النفس كما ان يريد الحجامة بقلبه ولكن يكرهها نفسه فانما طيبة النفس ان تسمح نفسها الا
بلا عن ضرورة تقابله حتى اذا ردت بين ضررين اختارت اهونهما فهي مصادرة على التحقيق
باكراه الباطن نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والاغراض فينظر الى الابراء الظاهر
وانها لم تكره بسبب ظاهر والاكراه الباطن ليس يطلع عليه الخلق ولكن مهما تصدى القاضي
الاكبر في صعيد القيامة لم يكن هذا مبرءا ولا مفيدا في تحصيل الابراء وكذلك لا يحل ان

ويأخذ مال الانسان لا بطيبة نفس منه فلو طلب من انسان مالا على ملأ من الناس واستحيى من الناس
ان لا يعطيه فكان يود ان يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن يخاف مذمة الناس ويخاف
الم تسليم المال ويود تسليمه فهما فاعتدلا صوت الالمين فرام التسليم فسلمه فلا فرق بين هذا
وبين المصادرة اذ معنى المصادرة ايلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك اقوى من الم القلب ببذل
المال فيختار اهون الالمين والسؤال في مظنة الحياء انما هو ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين
ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله فان الباطن عنده ظاهر وانما حاكم الدنيا هو الذي
يحكم بالملك نظاهرا قوله وجب لانه لا يمكنه الوقوف على سرائر القلب وكذلك كل من يعطي
اتقاء لشر لسانه او لشر سعايته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام
الاثر وصلحا في قصة داود عليه السلم حيث قال عبدان عنده يارب كيف يمضي ملك لا
وكان نبيا فامر بندائه في حضرة بيت المقدس فنادى ادم ما جاء لبيك يا نبي الله اخرجتني
من الجنة فاذا زوجك قال له اسالك اليك في امري فيهما قال قد فعلت ذلك يا نبي الله
فاصرفهما عنك الى ذلك قال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت قال لا قال
فارجع حيث لا نخرج فناداه فقال لبيك يا نبي الله فقال له اذ نبت اليك ذنبا قال لم اهبه
لك قال او لا تستحي مع ذلك الذنب قال ما هي يا نبي الله قال كذا وكذا وقد كنت ذكرت الملة فانقطع
الجواب فقال يا ادريا الا عجيب قال يا نبي الله ما كنا نفعل الا هنا حتى اقف معك بين
يدي الله تعالى فاستقبل داود عليه السلام الضراعة والبكاء من الراس حتى وعد الله ان يستوهب
منه في القيمة فهذا ينبهك ان الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وان طيبة القلب لا تحصل الا
بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الابدا ما لم يعرفها الا اذا خرج الى الجبل والمتاعب
حتى ينبعث المطلوب من ذات نفسه الا ان يضطر بوحشه الى الحركة بالحيل والالزام ومن
ذلك هبة المرجل مال الزكوة في آخر الحول من زوجته وابنه ماله الا اسقاط الزكوة فالفقيه
يقول سقطت الزكوة فان اراد به ان مطالبة السلطان والساعي قد سقطت عنه فقد صدق
فان مطمح نظرهم ظاهر الملك فقد زال وان ظن انه يسلم في القيمة ويكون كمن لم يملك المال
او كمن باع لحاجته الى البيع لا على هذا القصد فما اعظم جهله بفقه الدين وسر الزكوة فان سر
الزكوة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال عليه السلم ثلث مهلكات شح مطاع
وانما يصير شحه مطاعا بما فعله وقد كان مطلقا فقد تم مطاعا ثم يبطل انه فخلاصة فان

٦٢١

يطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه وانه بلغ من حرصه للمال ان استنبط الحيل حتى يسد على
طريق الخلاص من الفضل بالحيل والغرور من ذلك اباحته للفقيه مال المصالح للفقيه وغيره بقدر
حاجته والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الاماني والفضول والشهوات وبين الحاجات بل كل
ما لا يتم رعونتهم الا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد اليها في العبادة وسلوك
طريق الله فكل ما تناوله للاستعانة به على الدين بالعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضول وشغل
ولو ذهبت اصف غرور الفقهاء في امثال هذا لملأت منه مجلدات والغرض التنبيه على امثلة تعرف
الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول الصنف الثاني ارباب العبادات في العمل
والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم في تلاوة القرآن ومنهم في الحج ومنهم
في الغزو ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور الا الاكياس
وقليل ما هم فمنهم فرقة اهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل
حتى خرجوا الى العدوان والسرف كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي
الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسات واذا آل
الامر الى اكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما اكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط
من الماء الى الطعام لكان اشبه بسيرة الصحابة اذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع
ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع ابوابا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام ثم في هؤلاء من يخرج
الى الاسراف في صب الماء وذلك منهي عنه وقد يطول الامر حتى يضيع الصلوة ويخرجها عن وقتها
وان لم يخرجها ايضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة اول الوقت وان لم يفته فهو مغرور
لاسرافه في الماء وان لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو اعز الاشياء فيما له مندوحة عنه الا
ان الشيطان يصد الخلق عن الله بطرق ولا يقدر على صد العباد الا بما يخيل اليهم انه عبادة فيبعدهم
عن الله بمثال ذلك وفرقة اخرى غلب عليه الوسوسة في نية الصلوة فلا يدعها الشيطان حتى يعقد
نية صحيحة بل يشوش عليه حتى يفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وان تم تكبيرة فيكون في
قلبه تردد في صحة نيته وقد يوسوس في التكبير حتى يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط
فيه يفعلون ذلك في اول الصلوة ثم يغفلون في جميع الصلاة ولا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك
ويظنون انهم اذا اتعبوا انفسهم في تصحيح النية في اول وقت الصلوة وتميزوا عن العامة
بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم وفرقة اخرى يغلب عليها الوسوسة في اخراج حروف

الفاتحة وساير الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح
مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ
به وصرف الفهم الى اسراره وهذا من اقبح انواع الغرور فانه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق
مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم في الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان
وامر بان يؤديها على وجهها فاخذ يؤدي الرسالة ويتانق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة
مرة بعد اخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما احراه بان تقام عليه
السياسة ويرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل وفرقة اخرى اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه
هذا وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة والسنتهم تجري به وقلوبهم تتردد في اودية الاماني ولا
يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند اوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع
الاعتبار منه الى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن
ان المقصود من انزال القرآن الهمهمة مع الغفلة عنه ومثاله مثال عبد كتب اليه مالكه كتابا واشار
عليه فيه بالاوامر والنواهي فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو
مستمر في خلاف ما امره به مولاه الا انه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق
للعقوبة ومهما ظن ان ذلك هو المراد فهو مغرور نعم انما تلاوته انما يراد لكي لا ينسى بل لحفظه
وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه
ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن ان ذلك لذة مناجاة الله وسماع كلامه وانما هي لذة في صوته
ولو ردد الحانه بشعر وكلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ فهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرف ان ذلك
لذته بكلام الله من حيث حسن نظمه ومعانيه او بصوته وفرقة اخرى منهم اغتروا بالصوم وربما
صاموا الدهر او صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون السنتهم من الغيبة وخواطرهم من الرياء وبطونهم
من الحرام عند الافطار والسنتهم من الهذيان بانواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه
الخير فيهمل الفرض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور وفرقة اخرى اغتروا بالحج من
غير خروج من المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك
بعد سقوط حج الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب
والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحترزون في الطريق من الرفث والخصام
وربما جمع بعضهم الحرام فانفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصي الله

كب الطعام اولا وانفاقه بالرياء ثانيا ولا هو يتفطن من حاله ولا هو يرغب في محبته ثم يعتقد انه يبلغ
رتبة اهل الاخلاق ويدعي الصفات ثم يقدم تطهيرها على بعضها وهو مع ذلك يظن انه على خير من ربه
وفرقة اخرى اغترت في طريق الحسبة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويامرهم
بالخير وينسى نفسه واذا امرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعز واذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال
انا المحتسب فكيف تنكر علي وقد يجمع الناس الى مسجده ومن تاخر عنه اغلظ القول عليه وانما غرضه
الرياء والرياسة ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولو جاء غيره
واذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم اخذ حقي وزوحمت على مرتبتي وكذلك قد يتقلد امامة
مسجد ويظن انه على خير وانما غرضه ان يقال انه امام المسجد فلو تقدم غيره وان كان اورع واعلم
منه ثقل عليه وفرقة اخرى جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم
وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفهم ان فلانا مجاور بمكة وتراه يتحدث ويقول قد جاورت
بمكة كذا وكذا سنة واذا سمع ان ذلك قبيح ترك صريح التحدث واحب ان يعرفه الناس واذا جمع شيئا
شح عليه وامسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة
من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وان يقال انه من المجاورين الزمه
المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو ايضا مغرور وما من عمل من الاعمال وعبادة من العبادات
الا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا من جملة
كتاب احياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلوة وفي الحج والزكوة والتلاوة
وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ما سبق في
الكتب وفرقة اخرى زهدت في المال وقنعت من الطعام واللباس بالدون ومن المسكن بالمساجد
وظنت انها ادركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه اما بالعلم او بالوعظ او بمجرد الزهد
فقد ترك اهون الامرين وباء باعظم المهلكين فان الجاه اعظم من المال ولو ترك الجاه واخذ المال كان
الى السلامة اقرب فهذا مغرور اذ ظن انه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر ان
منتهى لذاتها الرياسة وان الراغب فيها لا بد وان يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا
بجميع خبائث الاخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بذلك
على الاغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر اليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم ويعجب
بعمله ويتصف بجملة خبائث القلوب وهو لا يدري وربما يعطى المال فلا ياخذه خيفة من ان يقال

مثل زهدت ما يقبل خشنه في الظاهر ورقه في الباطن لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس
وهو يتلطف في حمد الناس وهو من الذ ابواب الدنيا ويرى نفسه انه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع
ذلك فربما لا يخلو عن نوع الاختبار وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة
عن المائلين الى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان وفرقة اخرى تشددت
في اعمال الجوارح حتى يصلي في اليوم والليلة مثلا الف ركعة ويختم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر
له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري ان ذلك مهلك
وان علم فلا يظن بنفسه ذلك وان ظن بنفسه ذلك توهم انه مغفور له لعمله الظاهر وانه غير مؤاخذ باحوال القلب
وان توهم فيظن ان العبادات الظاهرة يترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذي
تقوى وخلق واحد من اخلاق الاكياس افضل من امثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور
مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فاذا قيل له انت
من اوتاد الارض واولياء الله واحبائه فرح المغرور وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن ان تزكية
الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدري ان ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه وفرقة اخرى
حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى احدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وامثال
هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في اول الوقت وينسى قوله
صلى الله عليه وسلم ما تقرب المتقربون بمثل اداء ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من جملة
الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان احدهما يفوت والآخر لا يفوت او فضلان احدهما
يضيق وقته والآخر يتسع وقته فان لم يحفظ وقت الترتيب فيه كان مغرورا ونظائر ذلك اكثر
من ان تحصى فان المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقديم بعض الطاعات
على البعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فرض الاعيان على فرض الكفايات وتقديم
فرض كفاية لا قائم بها على ما قام به غيره وهذا كما يجب ان يقدم حاجة الوالدة على حاجة الوالد
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من ابر فقال امك قال ثم من قال امك قال ثم من قال اباك
قال ثم من قال ادناك فادناك فينبغي ان يبدا في الصلة بالاقرب فان استويا فالاحوج فان استويا
فالاتقى والاورع وكذلك من لا يفي بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغي ان يقدم
على الحج وهذا من تقديم فرض اهم على فرض هو دونه وكذلك اذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت
الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وان كان هو طاعة في نفسه وكذلك

تشبيه نوبه النجاسة فيغلظها الخوف على ابن واصل بسببه فالنجاسة عندوره فانها بعد ما هو من الجود
من الايذا الضمني للمتنجس النجاسة واستخدمها في العبوديات والطاعات لا تغتفر ومن ترك الندب
في جميع ذلك فهو مغرور ومغلوب في غاية الغرور لان المعصية في طاعة الله لا ينظر البصير ويعد
الطاعة معصية حيث يترك الطاعة الواجبة ... منها ومن جملة الاشتغال بالمناهي خلاف في
الفقه فيخرج من بين ... ... الطاعات والمناهي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح
والمتعلقة بالقلب لان مقصود الفقه معرفة ما يصلح اليه ... جوارحهم فهو ... يحتاج اليه
فيغلبه الا ... لان حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الاقران والتقدم عليهم ... عليه
حتى ... ... انه مشغول بهم دينه الصنف الثالث المتصوفة وما اغلب
الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة وهم متصوفة اهل الزمان الا من عصمه الله تعالى اغتروا بالزي
والمنطق والهيئة فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئاتهم وفي الفاظهم وآدابهم ومراسمهم
واصطلاحاتهم وفي احوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادة
مع اطراق الراس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث
الى غير ذلك من الشمائل والهيئات فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا انهم ايضا صوفية ولم
يتعبوا انفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية
والجلية وكل ذلك من اوائل منازل التصوف ولو فرغوا من جميعها لما جاز لهم ان يعدوا انفسهم من الصوفية
ولم يحوموا قط حولها ولا يسوموا انفسهم شيئا منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات واموال السلاطين
ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم
اعراض بعض مهما خالفه في شي من غرضه فهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال المراة العجوز سمعت ان الشجعان
من المقاتلين ثبتت اسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة فتاقت نفسها
الى ان يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على راسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعودت
ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيف هيئات تبخترهم في الميدان وكيفية تحريكهم
الايدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر
ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر انفذت الى ديوان العرض وامرت ان
يجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته ويمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها
في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل

اجتنب الاستهزاء بالمنكر والاختلاف باهل بعض تبطل البليس عليهم بعد معرفتنا البوضا الي دوام الليل
نهضنا ان القيت الي اخفيته هكذا يكون حال المدعين يتشوفون في الهيمان اكثر من التقشف
معرضا عن القاضي الاكبر لا ينظر الى الزي والمرقع بل ينظر الى سر القلب [illegible]
زادت على [illegible] في [illegible] الاستدلال بهم في [illegible] الثياب [illegible]
ان يتظاهروا بالتصوف مع تجردهم من الزهادة بهم ترك الخز والابريسم وطلب المرقعات النفيسة
والفوط الرفيعة والعمامات المصبوغة يلبسون من الثياب ما هو ارفع قيمة من الخز والابريسم
ويظن مع ذلك انه متصوف بمجرد ان ثيابه كونها مرقعة وينسى انهم انما لبسوا الثياب لانه لم يكن
عليهم غسلها في كل ساعة ولا ازالة الوسخ وانما لبسوا المرقع اذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها
ولا يلبسون الجديد وانما يقطعون الفوط الرفيعة قطعة قطعة ويخيطونها المرقعات [illegible]
يشبه ما اعتادوه فهؤلاء اظهر حماقة من كافة الفريقين فانهم يتصورون بصورة الثياب ويطلبون
الاطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون اموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا
عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بانفسهم الخير [illegible] الا ما [illegible] الي [illegible]
بهم [illegible] لا [illegible] في اهل التصوف كافة ويظن ان جميعهم كانوا [illegible]
[illegible] الشانعين منهم [illegible] المتشبهين [illegible] الى
علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة في عين الشهود والوصول
الي القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالاسامي والالفاظ الا انه تلقف من الفاظ الطامات كلمات
فهو يرددها على نفسه ويظن ان ذلك اعلى من علم الاولين والآخرين فهو ينظر الي الفقهاء
والمفسرين والمحدثين واصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام حتى ان الفلاح يترك
فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم اياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة
فيرددها كانه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول
في العباد انهم اجراء متعبون ويقول في العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعي لنفسه انه
الواصل الي الحق وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند ارباب القلوب
من الحمقاء الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم [illegible] ولم يراقب قلبا سوى اتباع
الهوى وتلقف الهذيان [illegible] ومنهم [illegible] في الاباحة وطووا بساط الاحكام ورفضوا
التفصيل بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله مستغن عن عملي فلم اتعب نفسي وبعضهم يقول

قد كلفت الناس تطهير القلب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن وأما المغتر
من لم يجرب وأما من قد جربها واراد ذلك فعلم ان ذلك محال ولا يسلم الاحمق ان الناس لم يكلفوا قلع الشهوة
والغضب عن اصلهما بل تاديبهما بحيث ينقاد للحكم العقل والشرع ومنهم من يترك الاشتغال بالمجاهدة لا يريد
هذا وانما الاشتغال بعمل القلب وتخليته ما هو سبب الوصول الى معرفة الله واعراضه عن الدنيا بما ابتدأنا
عليه كما كشف في الحضرة الربوبية فهو مع المشتغلين بالظاهر اهل التلبيس من جهة انهم تركوا علم الشريعة
العلوم واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال الشرعية فان الشهوات لا يصدهم عن ترك الحرام الذي هم
فيها وفرحوا بنجاة انفسهم عن ربقة الاتباع اذ كانت يصدهم عن طريق المخيلة واحدة حتى كانوا
يكون عليها ونحو ذلك من سنن الشرع اسنادا فتحوا اهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لا يحصى
وكل ذلك بنا على ان الشياطين صدهم من المشيطات بها الا استغنائهم بالمجاهدة قبل احكام
العلم وقبل الحكمة واتبع شيخا متقنا في الدين والعلم صالحا للاقتداء واحصوا سنا لهم تطلب روح
امر الحياة وبحث عن لا مصنف الاوراد وطلب الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصارت
تدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضى ونحو ذلك من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها
وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم انه واله بالله ولعله قد تخيل في الله
خيالات هي بدعة او كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ثم انه لا يخلو من مقارفة ما يكره الله وايثار هوى
نفسه على امر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله وليس يدري ان
كل ذلك يناقض الحب ومنهم من يميل الى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح
دعوى التوكل وليس يدري ان ذلك بدعة لم ينقل عن السلف والصحابة وقد كانوا اعرف بالتوكل
منه فما فهموا ان التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا ياخذون الزاد وهم متوكلون على الله
تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام
من المقامات المنجيات الا وفيها غرور وقد اغتر بها قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات
من الكتاب فلا يمكن اعادتها وفرقة اخرى ضيقت على نفسها في امر القوت حتى طلبت منه الحلال
الخالص واهملت تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من اهمل الحلال في
مطعمه وملبسه ومكسبه واخذ يتعمق فيما عدا ذلك وليس يدري المسكين ان الله لم يرض من عبده
بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد جميع الطاعات
والمعاصي فمن ظن ان بعض هذه الامور يكفيه وينجيه فهو مغرور بل ربما ينجو بعضهم او يموت على الحق

والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما تكلفوا لخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة
للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاق وهم
يظهرون ان غرضهم الارفاق وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون ان غرضهم الخدمة والتبعية ثم
انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر اتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم وبعضهم
يأخذ اموال السلاطين وينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم
ان غرضه البر والانفاق وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك اهمالهم لجميع اوامر الله تعالى
عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم باخذها والانفاق منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج
لارادة الخير كمن يعمر مسجدا فيطينه بالعذرة ويزعم ان قصده العمارة وفرقة اخرى
اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون
فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة فهم في جميع احوالهم مشغولون
بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون هذا في النفس عيب
والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات الى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة
فضيعوا الاوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان
كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه وفرقة اخرى
جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤوا سلوك الطريق وانفتح لهم ابواب المعرفة فكلما تشمموا من مبادئ المعرفة
رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها واعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها
وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسدادها على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجائب طريق الله تعالى
ليس لها نهاية فلو وقف مع كل اعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم عن الوصول الى المقصد وكان
مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها ازهار وانوار لم يكن قد رأى قبل
ذلك مثلها فوقف ينظر اليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك وفرقة اخرى جاوزوا هؤلاء
ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا
على الفرح بها والالتفات اليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله تعالى فظنوا
انهم وصلوا الى الله تعالى فوقفوا وغلطوا فان لله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك الى حجاب
من تلك الحجب في الطريق الا ويظن انه قد وصل واليه الاشارة بقول ابراهيم صلى الله عليه وسلم
اذ قال الله تعالى اخبارا عنه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي وليس المعني به هذه الاجسام

٤٢٥

المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم انها ليست بالهة وهي كثيرة وليست واحدا والجهال يعلمون
ان الكوكب ليس باله فمثل ابرهيم لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية ولكن المراد به نور من الانوار التي
هي من حجب الله وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله الا بالوصول الى هذه الحجب وهي حجب
من النور بعضها اكبر من بعض واصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه واعظمها الشمس وبينهما رتبة
القمر فلم يزل ابرهيم عليه السلم لما رأى ملكوت السموات حيث قال الله تعالى وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات
يصل الى نور بعد نور ويتخايل اليه في اول ما يلقاه انه قد وصل ثم كان يكشف له ان وراءه امرا فيترقى
اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي لا وصول الا بعده
قال هذا اكبر فلما ظهر له انه مع عظمه غير خال عن الهوي في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال
قال لا احب الافلين اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وسالك هذا الطريق قد يغتر
في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول واول الحجب بين العبد وبين الله هو
نفسه فانه ايضا امر رباني وهو نور من انوار الله اعني سر القلب الذي يتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه
يتسع لجملة العالم ويحيط به ويتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق منه نوره اشراقا عظيما اذ
يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في اول الامر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فاذا تجلى نوره
وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله
الفائق ما يدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول انا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك
اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من انوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى
القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس اذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون
ما يتراءى في المرآة فيظن انه لون المرآة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل رق الزجاج ورقت الخمر
فتشابها فتشاكل الامر فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر وبهذه العين نظر النصارى الى
المسيح عليه السلام فراوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مرآة او في ماء
فيظن ان الكوكب في المرآة او في الماء فيمد اليه يده ليأخذه وهو مغرور وانواع الغرور في طريق السلوك
الى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك مما لا رخصة
في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه ايضا كان الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج الى ان يسمعه من
غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم
ولكن فيه فائدة وهو اخراجه من الغرور الذي هو فيه اذ ربما يصدق بان الامر اعظم مما يظنه ومما يتخيله

بمنصبه المحتشم بين ايدي الناس وحب الزخرف ويصدق ايضا بما يحكى من المكاشفات التي اخبر
عنها اولياء الله وهي اعظم غرور وربما اضر مكذبا بما يسمعه الآن من بعد الصنف الرابع
ارباب الاموال والمغترون منهم فرق ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس
والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون اساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم
ويبقى بعد الموت اثرهم وهم يظنون انهم قد استوجبوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين
احدهما انهم يبنونها من اموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا
لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في انفاقها فكان الواجب عليهم الامتناع من كسبها فاذا عصوا
الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى وردها الى ملاكها اما بعينها
واما برد بدلها عند العجز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة فان لم يبق
للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى اهم المصالح وربما يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم
لا يفعلون ذلك خيفة من ان لا يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالآجر وغرضهم من بنائها
الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء اسمائهم بها لا لبقاء الخير [illegible] الثاني انهم
يظنون بانفسهم الاخلاص وقصد الخير في الانفاق على الابنية ولو كلف [illegible] منهم ان ينفق
دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي انفق عليه لشق عليه ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه
كتب اسمه او لم يكتبه ولولا انه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك وفرقة اخرى
ربما اكتسب المال من الحلال وانفقه على المساجد وهي ايضا مغرورة من وجهين احدهما الرياء
وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره او في بلده فقراء وصرف المال اليهم اهم من الصرف الى بناء المساجد
وزينتها وانما خف عليه الصرف الى المساجد ليظهر ذلك بين الناس والثاني انه يصرف الى زخرفة
المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة اعينهم والمقصود
من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك
كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى انه من الخيرات ويعتد ذلك وسيلة الى الله وهو بذلك قد
تعرض لسخط الله وهو يظن انه مطيع له وممتثل لامره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرف من
المسجد وربما شوقهم الى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه
ووبال ذلك كله في رقبته اذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى قال مالك بن دينار اتى
رجلان مسجدا فوقف احدهما على الباب وقال مثلي لا يدخل بيت الله فكتبه الملكان عند الله صديقا فهذا

ينبغي ان يعظم المسجد ويرى ان يرى تلويثا المسجد بنقشه جناية على المسجد لا ان يرى تزيينا للمسجد
بالحرام وزخرف الدنيا منة على الله تعالى وقال الحواريون للمسيح عليه الصلاة والسلام انظر الى هذا
المسجد ما احسنه فقال اقول لكم بحق ما اقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر الا اهلكه
بذنوب اهله ان الله لا يعبا بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا وان احب الاشيا
الى الله القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك وقال ابو الدرداء قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم وقال الحسن ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما اراد ان يبني مسجد المدينة اتاه جبريل عليه السلام فقال ابنه سبعة اذرع طولا
في السما لا تزخرفه ولا تنقشه فغروره من حيث انه راى المنكر معروفا واتكل عليه وفرقة اخرى ينفقون
الاموال بالصدقات على الفقرا والمساكين ويطلبون بها المحافل الجامعة ومن الفقرا من عادته الشكر والافشا
للمعروف ويكرهون التصدق في السر ويرون اخفا الفقير لما اخذ منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون
على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد اخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود
في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين
يهوي باحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره ماسور الى جانبه لا يواسيه وروى ابو نصر التمار ان رجلا جا ي
يودع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتامرني بشي فقال له كم اعددت للنفقة فقال الفي درهم قال فاي
شي تبتغي بحجك تزهدا او اشتياقا الى البيت او ابتغا مرضات الله تعالى فقال ابتغا مرضات الله
تعالى قال فان اصبت رضا الله وانت في منزلك وتنفق الفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى
اتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة انفس مديون يقضي دينه وفقير يرم شعثه ومعيل
يغني عياله ومربي يتيم يفرحه وان قوي قلبك ان تعطيها واحدا فافعل فان ادخالك السرور على قلب المسلم
واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف افضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما
امرناك والا فقل لنا ما في قلبك فقال يا ابا نصر سفري اقوى في قلبي فتبسم بشر واقبل عليه فقال له المال
اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس ان تقضي به وطرا فاظهرت اعمال الصالحات وقد
آلى الله سبحانه وتعالى على نفسه الا يقبل الا عمل المتقين وفرقة اخرى من ارباب الاموال اشتغلوا بحفظ الاموال
وامساكها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام
الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى على باطنه فهو يحتاج الى قمعه باخراج
المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد اشرف على الهلاك

وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج الى السكنجبين ولذلك
قيل لبشر رحمه الله ان فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره
انما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا افضل من تجويعه نفسه ومن
صلاته لنفسه مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء وفرقة اخرى غلب عليهم البخل فلا تسمح نفوسهم الا باداء
الزكاة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من
يخدمهم ويتردد في حاجاتهم او من يحتاجون اليه في المستقبل للاستسخار في خدمة او من لهم فيه
على الجملة غرض او يسلمون الى من يعينه واحد من الاكابر ممن يستظهر بحشمته لينال بذلك عنده منزلة
فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن انه مطيع لله
وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا وامثاله من غرور ارباب الاموال ايضا لا يحصى وانما
ذكرنا هذا القدر للتنبيه على اجناس الغرور وفرقة اخرى من عوام الخلق وارباب الاموال والفقراء
اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا ان ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون ان لهم
على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ اجرا وهم مغرورون لان فضل مجالس الذكر لكونه
مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث على العمل فان ضعفت
عن الحمل على العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الى ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما
يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي وربما
يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على ان يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم او نعوذ بالله او سبحان الله ويظن
انه قد اتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض يحضر مجالس الاطباء فيسمع ما يجري او الجائع
يحضر عند من يصف له الاطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ولا يغني عنه من جوعه شيئا وكذلك
سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئا فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير
افعالك حتى تقبل على الله وتعرض عن الدنيا اقبالا قويا او ضعيفا فذلك الوعظ زيادة حجة
عليك فاذا رايته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فما ذكرته من مداخل الغرور امر لا يتخلص
منه احد ولا يمكن الاحتراز عنه وهذا يوجب الياس اذ لا يقوى احد من البشر على الحذر من خفايا
هذه الآفات فاقول الانسان اذا فترت همته في شيء اظهر الياس واستعظم الامر واستوعر
الطريق فاذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول
الى الغرض حتى ان الانسان اذا اراد ان يستنزل الطير المحلق في جو الهواء مع بعده منه استنزله

ولما اراد ان يستصعد الحوت من اعماق البحار فاستصعده ولما اراد ان يخرج الذهب والفضة من تحت
الجبال فاستخرجه ولما اراد ان يقتنص الوحوش المتطفة في البراري والصحاري فاقتنصه ولما اراد ان
يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات فاستسخر ولما اراد ان يأخذ الافاعي والحيات ويلعب
بها فاخذها فاستخرج الترياق من اجوافها ولما اراد ان يتخذ الديباج الملون المنقوش من ورق التوت
فاتخذ ولما اراد ان يعرف مقادير الكواكب وطرقها ومعرفتها فاستخرج بدقيق الهندسة وهو مستقر
على الارض وكان ذلك باستنباط الحيل واعداد الآلات فمن الفرس والكلب للصيد ومن البازي
لاقتناص الطيور ومن الشبكة لاقتناص السمك الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لانه
همته امر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو همته امر آخرته لم يكن عليه الا شغل واحد وهو تقويم
قلبه فعجز عن تقويم قلبه متغافل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك محال لو تم حب
هذا العلم الاحمد بل هو كما قال الله تعالى لعمرك الهوى اتبعت الفسل فهذا ثم بعض السلف الصالح
من التابعين باحسان ولا يخرج هذا ايضا من صدقت الارادة وتمت همته الا انها لم الجهل ضيق الخلق
واستنباط حيل الدنيا فنظم اسبابها فان فعلت فقد قربت الارحب ... اكثرت في مداخل
التوحيد ثم ... فتعلم انه ... امرنا بالعقل والعلم ما امرنا ...
لا يجمعها انا العقل فاعني به العقل الغريزي والذي لا يصح الخلط به يحكم الانسان ... الاشياء
فالفطنة والكيس فطن ما لحق ما بالبلادة فطن والجبلية لا يقدر على الضعف من الفهم حتى العقل
وذكا الفهم لا يوجد في اصل الفطرة وهذا ان لم يفطن فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل اصل الذكاء
تقويته بالممارسة مستقاما من السلاوات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ...
... العقل من عباده ... ان الرجلين ليستوي علما ...
ولكنها يتفاوتان في العقل ...
ما ينبغي ... يا رسول الله ...
ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنازة ويعين الضعيف ولا يكون ...
عقله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله وقال انس اثنى على رجل
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله فقالوا يا رسول الله بذلك من عبادته ونذكر من
خلقه فقال كيف عقله فان الاحمق يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس على
قدر عقولهم وقال ابو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نبا له عن رجل شدة عبادة سأل عن

عقله فاذا قالوا احسن قالوا سوء قالت قالوا جزءك قالت بلغ قال فذكر لسندي عبادة بعيل فقالوا كيف
عقله فقالوا ليس فيه قالت بلغ صاحبكم حيث نطقت بالنكاء معه عزيزة العقل فيه من اشغالي
في اصل النطق قالت فات بيلادته وحماقته فلا تدرك هنا الثناء في المعرفة والغرض بها ان يعرف اربعة
امور يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة فيعرف نفسه بالعبودية والذلة وبكونه
غريبا في هذا العالم واجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانما الموافق لها طبعا معرفة الله تعالى
والنظر الى وجهه فقط ولا يتصور ان يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه ويستعين على هذا
بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب والتفكر وكتاب الشكر اذ فيها اشارات
الى وصف النفس والى وصف جلال الله ويحصل به التنبيه على الجملة وكمال المعرفة وراءه فان هذا
من علوم المكاشفة ولم نطلب في هذا الكتاب الا علوم المعاملة واما معرفة الدنيا والآخرة
فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب ذكر الموت ليتبين له نسبة الدنيا الى الآخرة
واذا عرف نفسه وعرف ربه وعرف الدنيا وعرف الآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة
شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها ويصير اهم اموره ما يوصله الى الله وينفعه في الآخرة
واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الامور كلها فان اكل مثلا واشتغل بقضاء الحاجة
كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته وانقطع عنه كل خبث منها من تجاذب
الاغراض والتزيين الى الدنيا والجاه والمال فان ذلك هو المفسد للنية وما دامت الدنيا احب اليه
من الآخرة وهوى نفسه احب اليه من رضوان الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فاذا غلب حب
الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال العقل فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم اعني
العلم بكيفية سلوك الطريق الى الله تعالى والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه والعلم بآفات
الطريق وعقباته وجميع ذلك قد اودعناه كتاب احياء علوم الدين فيعرف من ربع العبادات شروطها
فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات اسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه باذن الشرع
وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعرف جميع العقبات المانعة من طريق الله
فان المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع
المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد ان يوضع خلفا من المذمومة بعد محوها فاذا احاط بجميع
ذلك امكنه الحذر من الانواع التي اشرنا اليها من الغرور واصل ذلك كله ان يغلب حب الله تعالى
على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة فتصح به النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة

٦٢٠
٦٢٨

التي ذكرناها فان طلب فاذا اصل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه فاني لخاف عليه ان يخدعه الشيطان

ويدعوه الى حب الخلق ونشر اسمه ويعرف الناس بالمعلومين من دونه فان الدنيا المخلص لما فرغ من قطع الاخلاق

ولايات المطلب حتى صار من جميع المكروهات واستوى على صراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها وانقطع

من الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق الا الهم واحد وهو الله والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق الى لقائه وعجز الشيطان

عن اغوائه وايائه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطمعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة على خلق

الله والشفقة عليهم بالنصح والدعاء الى الله فينظر العبد بعين الرحمة الى العبيد فراهم حيارى في امرهم سكارى في

دينهم صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون قد فقدوا الطبيب واشرفوا على العطب فغلب على قلبه

الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالتهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها

من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة وقد كان مثله كمثل رجل كانت به داء عظيم لا يطاق الصبر عليه وكان لا يقدر وينام

ولا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتمكن من تحمل شدة الالم فوجد دواء عظيما مشهورا من غير ثمن ولا تعب ولا

مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ مع مطالب نومه بالليل وعطل نهاره ويدعي بالنهار بعد شدة القلق

عيشه بعد نهاية النكد واشتغل بلذة العافية بعد مطلب السقام ثم نظر الى عدد كثير من المسلمين واذا بهم تلك

العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع الى السماء انينهم فتذكر ان دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر

على شفائهم بالسهل ما يكون وفي اقرب زمان فأخذته الرحمة والرقة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن

الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد ما اهتدى الى الطريق وشفي من امراض القلب شاهد الخلق

وقد مرضت قلوبهم واعضلت وعلم وقرب علاجهم وشفاءهم وسهل عليه دواءهم فانبعث من ذات نفسه

منه جادا في الاشتغال بنصحهم ويحثه الشيطان على ذلك رجاء ان يجد مجالا الا الفتنة فكما اشتغل بدعوته

صار الفتنة فيجد مجالا للرياسة ويسخر النفوس من قبلها لانه لا يشرح المدح فلم يزل ذلك الذي يحثه حتى ادى

الى التصنع والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئات فاقبل الناس

اليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك اذ راوه شافيا لدائهم محضا لشفقته والرحمة من غير

طمع فصار احب اليهم من اباءهم وامهاتهم واقاربهم وآثروه بابدانهم واموالهم وصاروا له خولا خدمهم واعبده

معظمون في المحافل ويحكمونه على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة ما

من لذة اطيب من الدنيا شهوة تستحقر معها كل شيء وكان قد ترك الدنيا فوقع في اعظم لذاتها فعند ذلك

وجد الشيطان فرصته وامتدت الى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وعلامة انتشار الطبع

وركون النفس الى الشيطان انه لو اخطأ او زعم ... من الخلق حسب فاذا انكره في نفسه ما يجد من

بادر الشيطان فيخيل اليه ان ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله ووقعوا في
ربما التوحيد وذلك لعله الوقيعة فيمن يطعن عليه فيقع في الغيبة المحظورة بعد ترك احتمال الشتم ووقع في الكبر الذي هو
رد عن قبول الحق والشكر عليه بعد ان كان يحذر من طرائق المنظرات وكذلك اذا سبقه الضحك عن
بعض الاوراد خرجت النفس ان يطلع اهله عليه فيستقبح ذلك باستغفار وتنفس صعداء ربما زاد في
الاعمال والاوراد لاجلهم والشيطان يخيل اليه انك انما تفعل ذلك كيلا يفتروا من طريق الله بسبب تركك
الطريق بتركك وانما ذلك خدعة وغرور بل هو خوف من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع
على مثل ذلك من اقرانه من سائر الناس ولا يبالي بقوله وفراره ام كلا يبقى الى عليه كلامه شيء ذلك عليه ولولا
النفس لما اضطربت ولا سلمت بالرياسة لكانت تغتم بذلك اذ ... ان يرى الرجل جماعة من اخوانه ومن
في ... على راس البئر ... فيخرجوا منها ... بسبب ... لا ... من ... عليه
فيا من ... لكي ... عليه اوكنا ذلك ... بنفسه فيعظم ذلك ... خلاص اخوانه من
البئر ان كان غرضه انقاذ خلاص لخوانه المسلمين ... فاذا ... عليه لاحد
لاحد ... بانفسهم لما كان ... يشق عليه انكان غرضه ... فاذا ... بغيره ... عليه
عليه ومعاوضة لكنه ... نفسه ... الشيطان الرجيم ... القلوب ... فاعلكه ...
حتى يدفع القلوب ... هو ... النفس ... الاشياء ... فان ... لا ... بجميع الناس
فاقول اذا لم يكن له مقصود ... وكان ... يوجد ... من ... او ... بانفسهم ... الكلية
طمعه عن ثنائهم ... الحكم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم اذا كان الله ... لم يفرح
لم يفرح به ... اليهم كما ينظر الى ... ما الى البهائم ... الى ... لا يتكبر
... نفسه ... بالمذمة واما الى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في
قلوبهم فانه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع بل راعي الماشية غرضه رعاية الماشية ودفع
الذئب عنها دون نظر الماشية اليه فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت الى نظرها ... لا يبالي
لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم ... ربما اصلحهم ولكن ... نفسه باصلاحهم فيكون كالشمع الذي يضيء
لغيره ويحترق في نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ الا من طهر من هذه الافات ... لخلت الدنيا عن
الوعظ وخربت القلوب فاقول ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الدنيا راس كل خطيئة ولولا حب الناس الدنيا
لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والابدان جميعا الا انه صلى الله عليه وسلم علم ان حب الدنيا مهلك وان
ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الاكثرين الا الاقلين الذين لا يخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر

٦٢٩

[illegible] وعلمائنا [illegible]

[illegible]

فان الشيطان يدعو هذا الضعيف بالقوام لاخلاقهم فانا اخشى ان يفسد طريق الاشتغال فاما ان يخرج من السنة الوعاظ
[illegible] بالحث الرياسة وحب الدنيا فلا يمكنه ذلك ابدا فان قلت فان علم الدين هذه الحيلة من الشيطان [illegible]
بنفسه [illegible] النصح [illegible] فلها شروط الصدق والاخلاص فالذي يخاف عليه وهو الذي يجب [illegible]
الاعتقاد [illegible] الاخرة [illegible] ان الشيطان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] قال الشيطان [illegible]
[illegible]
[illegible] الشيطان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الشيطان [illegible]
[illegible] الناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا
المخلصون والمخلصون على خطر عظيم [illegible]

	[illegible]	

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي بحمده يستفتح كل كتاب وبذكره يصدر كل خطاب وبحمده يتنعم اهل النعيم في دار الثواب
وباسمه يتسلى الاشقياء وان ارخي دونهم الحجاب وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه
الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونتوب اليه توبة من يوقن انه رب الارباب ومسبب الاسباب ونرجو
رجاء من يعلم انه الملك الرحيم الغفور التواب ونمزج برجائنا الخوف مزج من لا يرتاب انه مع كونه غافر الذنب
وقابل التوب شديد العقاب ونصلي على نبيه محمد صاحب الاكرمين صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض
والحساب وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب اما بعد فان التوبة عن الذنوب بالرجوع
الى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدا طريق السالكين وراس مال الفائزين واول اقدام المريدين
ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولابينا آدم صلوات الله عليه وعلى
سائر الانبياء اجمعين وما احرى بالاولاد الاقتداء بالآباء والاجداد فلا عجب ان اذنب الآدمي واجترم
فهي شنشنة يعرفها من اخزم ومن اشبه اباه فما ظلم ولكن الاب اذا جبر بعد ما انكسر وعمر بعد ان هم بالهدم
فليكن النزوع اليه في كلا طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ولقد قرع آدم سن الندم وتندم
على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم بل التجرد لمحض
الخير دأب الملائكة المقربين والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين والرجوع الى الخير بعد الوقوع
في الشر ضرورة الآدميين فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان والمتجرد للشر شيطان والمتلافي للشر
بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان واصطحب فيه سجيتان
فكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك او الى آدم او الى الشيطان فالتائب قد اقام البرهان على صحة نسبه
الى آدم بملازمة حد الانسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان فاما تصحيح النسب
بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة فخارج عن حيز الامكان فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما
لا يخلصه الا احدى النارين نار الندم او نار جهنم فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان

من حبائل الشيطان واليك الآن لتشمر امرها بالترتيب والمبادرة الى اخذ الفارق قبل ان يعدم
بها الاختيار ويساق الى دار الاضطرار اما الى الجنة او الى النار واذا كانت التوبة من الدين
هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلاماتها وثمرتها
والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اربعة اركان الركن الاول في
نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور وعلى جميع الاشخاص في جميع الاحوال
وانها اذا صحت كانت مقبولة الركن الثاني فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان اقسامها
الى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على
الحسنات والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغائر الركن الثالث في بيان
شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان اقسام
التائبين في دوام التوبة الركن الرابع في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في
حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله الركن الاول
في بيان التوبة وبيان حقيقة التوبة ومعناها اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلثة
امور مرتبة علم وحال وفعل والعلم اول والحال ثان والفعل ثالث والاول موجب للثاني والثاني
موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله تعالى في الملك والملكوت اما العلم فهو معرفة عظم
ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على
قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم
وذلك فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه
ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب واستولى انبعث من هذا الالم في القلب حالة اخرى تسمى
ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال اما تعلقه بالحال فبترك الذنب
الذي كان ملابسا واما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر واما بالماضي
فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات
واعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بان الذنوب سموم مهلكة
واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر هذا
الايمان مهما اشرق على القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق
عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فسطع النور عليه بانقشاع سحاب او انحسار حجاب فرأى

محبوبه وبذلك قد وقع على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث بتلك النيران الارادة للانتهاض
لتداركه فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة
معاني مرتبة في الحصول يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة
والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال صلى الله عليه وسلم الندم توبة اذ لا يخلو الندم
من علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه اعني ثمرته ومثمره وبهذا
الاعتبار قيل في حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك
قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة
انه خلع لباس الجفا ونشر بساط الوفا وقال سهل التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات
المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت واكل الحلال وكانه اشار الى المعنى الثالث من التوبة
والاقاويل في حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت ان جميع
ما قيل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور اهم من طلب الالفاظ
المجردة بيان وجوب التوبة وفضلها اعلم ان وجوب التوبة ظاهر بالاخبار والآيات وهو
واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على ان يسعى
بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة فالسالك اما اعمى لا
يستغني عن القائد في خطوة واما بصير يهدى الى اول الطريق ثم يهتدي بنفسه وكذلك الناس
في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر
الى ان يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله وسنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسير هذا وان طال
عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه
فيتنبه بادنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة فيشرق في قلبه نور القرآن و
الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزي بادنى بيان فكانه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فاذا
مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج الى نص منقول في كل واقعة
فمن هذا حاله اذا اراد ان يعرف وجوب التوبة فينظر اولا بنور البصيرة الى التوبة ما هي ثم الى الوجوب
ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بان يعلم ان معنى الواجب
ما هو واجب في الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة
بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض

فاني ما الاعرض لنا عاجلا وآجلا في فضله وكرمه فلا معنى لاشتغالنا به اوجبه علينا غيرنا ادوم بقي
فاذا عرف معنى المحبوب وانه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم انه لا سعادة في دار البقاء الا بلقاء
الله وان كل محجوب عنه شقي لا محالة يحول بينه وبين ما يشتهيه محترق بنار الفراق ونار جهنم وعلم
انه لا يبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفاني والاكباب على حب ما لا بد
من فراقه قطعا وعلم انه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال
بالكلية على الله تعالى طلبا للانس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان
الذنوب التي هي اعراض عن الله تعالى واتباع لمحاب الشياطين اعداء الله المبعدين عن حضرته
سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله فلا يشك في ان الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى
القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه ما لم يعلم ان الذنوب اسباب للبعد لم
يندم فلا يتوجع على سلوك طريق البعد فلا يرجع وما لم يرجع لم يعزم على الترك والعزم فلا يشك في ان المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول
الى المحبوب فهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة واما من لم يرشح لمثل هذا المقام المرتفع
درجته من حدود اكثر الخلق ففي التقليد والاتباع له مجال يجب ان يتوسل به الى النجاة من
الهلاك فيلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله عز وجل وتوبوا الى الله جميعا
ايها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا امر على العموم وقال تعالى يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة
نصوحا الآية ومعنى النصوح الخالص لله خاليا عن الشوائب ماخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة
قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب
الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة عبده المؤمن
من رجل نزل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع راسه فنام نومة فاستيقظ
وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش او ما شاء الله قال ارجع الى مكاني
الذي كنت فيه فانام حتى اموت فوضع راسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها
زاده وشرابه فالله اشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفي بعض الالفاظ قال من شدة فرحه
اذا اراد شكر الله انا ربك وانت عبدي ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه
الصلاة والسلام هنته الملائكة وهبط عليه جبرئيل وميكائيل وقالا يا آدم قرت
عينك بتوبة الله عليك فقال آدم يا جبرئيل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فاين مقامي فاوحى
الله تعالى اليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك

ومن سوابق الحسنة لم يطلع عليه لانه قريب عجيب بآدم واعترافنا بمن من الغيب مستبشرات قضا
ودوام مستجاب والاخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ
معناه العلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب
الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها
ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير
في سابق الاحوال وذلك لا يشك في وجوبه واما الندم على ما سبق والحزن عليه فواجب وهو روح
التوبة وبه تمام تلافيه فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع الم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات
من العمر وضاع في سخط الله فان قلت تألم القلب امر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف
بالوجوب فاعلم ان سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا
المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل
العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر والكل من خلق الله والله خلقكم وما تعملون
هذا هو الحق عند ذوي البصائر وما سوى هذا ضلال فان قلت افليس للعبد اختيار في الفعل
والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا ان الكل من خلق الله بل الاختيار ايضا من خلق الله والعبد
مضطر في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشوق
للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بان هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة
في ان هذا الطعام هل فيه مضرة مع انه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله
ام لا ثم خلق العلم بانه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزام
الارادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند
تمام اسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله اياها تحركت اليد الصحيحة الى جهة الطعام لا محالة
اذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد
حصول القدرة وانجزام الارادة وهما من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة
والعلم بعدم الموانع وهما ايضا من خلق الله لكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتبا
جرت سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة
ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق ارادة مجزومة ولا يخلق الارادة
المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بانه موافق

للنفس اما في الحال او في المآل ولا يخلق العلم ايضا الا باسباب آخر ترجع الي حركة وارادة وعلم فالعلم الميل
والطبع ابدا يستتبع الارادة الجازمة والارادة والقدرة ابدا تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل
والكل من مخترع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدم البعض وتاخر البعض
كما لا يخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحيوة ولا يخلق الحيوة الا بعد الجسم ويكون خلق الجسم
شرطا لحدوث الحيوة لا ان الحيوة تتولد من الجسم ويكون خلق الحيوة شرطا لخلق العلم لا ان العلم يتولد
من الحيوة ولكن يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا ان
العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود الا ممكن وللامكان ترتيب
لا يقبل التغير لان تغيره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف
من الجود الالهي والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان الاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان
لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله الذي هو
واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله
تعالى انا كل شيء خلقناه بقدر وعن القضاء الكلي الازلي العبارة بقوله وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر واما
العباد فانهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق
صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه
ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت
قهر التقدير سبق اهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا ايها الرجل قد
تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله
رمى وما قتلت اذ قتلت ولكن الله قتلهم قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة
عالم الشهادة فمن قائل انه جبر محض ومن قائل انه اختراع صرف ومن متوسط مائل الى انه كسب ولو فتح
لهم ابواب السماء فنظروا الى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم ان كل واحد صادق من وجه وان القصور
شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من
كوة نافذة الى عالم الغيب وانه تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى وقد
يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية
تسلسلها ووجه ارتباط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا ان
لا خالق الا الله ولا مبدع سواه فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب

بل هو صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا متناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايضاح

ذلك للافهام بمثال فاعلم ان جماعة من العميان سمعوا انه حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى

الفيل وكانوا ما شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لابد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر

عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد

بعضهم على اذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سالهم بقية العميان فاختلفت اجوبتهم فقال الذي لمس

الرجل ان الفيل ما هو الا مثل اسطوانة خشنة الظاهر الا انه الين منها وقال الذي لمس الناب ليس

كما تقول بل هو صلب لا لين فيه واملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الاسطوانة اصلا بل هو مثل عمود

وقال الذي لمس الاذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق احدهما فيه ولكن قال ما هو مثل عمود

ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ اخبر كل

واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن

الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال اكثر ما اختلف الناس فيه وان كان

هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك امواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده

وهو بيان ان التوبة واجبة بجميع اجزائها الثلثة العلم والندم والترك وان الندم داخل في الوجوب

لكونه واقعا في جملة افعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه

فاسم الوجوب يشمله بيان ان وجوب التوبة على الفور اما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه

اذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصي عن وجوبه هو الذي

عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل

بل هو من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصر باعثا

فالعلم بضرر الذنوب انما اريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان

وهو المراد بقوله عليه الصلوة والسلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وما اراد به نفي الايمان

الذي يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه

الزنا والمعاصي وانما اراد به نفي الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب

هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب

وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا

فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا اعلاها شهادة ان لا اله

الا انه وادناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القايل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو
نيف وسبعون موجودا اعلاها القلب والروح وادناها اماطة الاذى عن البشرة بان يكون
مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة من الخبث حتى يتميز عن البهايم المرسلة الملوثة
بارواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها واظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان
وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة التوحيد
والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة الا اصل
الروح وكما ان من هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الا
التي تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا اصل الايمان وهو مقصر في الاعمال قريب من ان تنقلع شجرة
ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان
لم يثبت في اليقين اصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية
ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقي بالطاعات على توالي الايام والساعات حتى رسخ
وثبت وقول العاصي للمطيع اني مؤمن كما انك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر انا شجرة وانت
شجرة وما احسن جواب الصنوبرة اذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف
فعند ذلك تنقلع اصولك وتتناثر اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة
عن اسباب ثبات الاشجار وسوف ترى اذا انجلى الغبار افرس تحتك ام حمار فهذا امر يظهر عند
الخاتمة وانما انقطعت نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهايلة التي لا يثبت
عليها الا الاقلون فالعاصي اذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في
الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع فجاة فيقال له الصحيح
يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء وجب
الخلود في النار فالمعاصي للايمان كالماكولات المضرة بالابدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير
مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي
فان كان الخايف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من الماكولات
في كل حال وعلى الفور فالخايف من هلاك الابد اولى بان يجب عليه ذلك وان كان متناول السم
اذا ندم يجب عليه ان يتقياه ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور
والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول سموم الدين

معنى الذنوب اولى بان يجب على الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر
فان الخوف من هذا الشر فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار
الجحيم والعذاب المقيم الذي يتضعف اضعاف اعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته آخر
فالبدار البدار الى التوبة قبل ان يعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه اختيار الاطباء ولا
ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بانه من الهالكين
ويدخل تحت عموم قوله تعالى انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين
ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أانذرتهم ام لم تنذرهم لا
يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد به الكافرون اذ بين لك ان الايمان بضعة وسبعون بابا وان
الزاني لا يزني وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان
الذي هو اصل كما ان الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع سيساق الى الموت المعدم للروح التي
هي اصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الاصل والفرع الا في
شيء واحد وهو ان وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الاصل ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع
فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الاصل
والفرع فلا يستغني احدهما عن الآخر وان كان احدهما في رتبة الاصل والآخر في رتبة التابع وعلوم
المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فانها ان لم تعمل عملها الذي تراد له
قامت مؤكدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الفاجر الجاهل
كما اوردناه من الاخبار في كتاب العلم بيان ان وجوب التوبة عام في الاشخاص والاحوال فلا ينفك
عنه احد البتة اعلم ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون
فعمم الخطاب ونور البصيرة يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن طريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان
ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل
الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقاربة الاربعين واصله انما يكون عند
مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة
فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت احدهما للآخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد
بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب احدهما ازعج الآخر بالضرورة واذا كانت الشهوات
تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب

انس والف الا ما استولت الشهوة بالعادة فتغلب عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل
الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ اوليائه من ايدي اعدائه شيا فشيا على التدريج فان لم يقو ولم
يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وانجز اللعين موعوده حيث قال كما ذكر الله تعالى في كتابه تعالى
لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوي كان اول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات
ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع
عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله وليس في الوجود آدمي الا وشهوته سابقة
على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة فكان الرجوع
عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل انسان نبيا كان او غبيا فلا تظنن ان
هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلم فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند
بل هو حكم ازلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في
في تبديلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من كفره وجهله فان بلغ مسلما تبعا لابويه
غافلا عن حقيقة الاسلام اسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغني عنه
اسلام ابويه شيا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والفه للاسترسال وراء الشهوات
من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانكفاف والاسترسال وهو من
اشق ابواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على ان التوبة
فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم عنها فخلقة
الولد لا تتسع لما لا تتسع له خلقة الوالد اصلا واما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو ان
كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبيا كما ورد في القرآن والاخبار من خطايا
الانبيا عليهم الصلوة والسلم وتوبتهم وبكايهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن
معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الخاطر
بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن الله تعالى فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم
بالله وبصفاته وافعاله وكل ذلك نقص وله اسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع
عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وانما
يتفاوتون في المقادير فاما الاصل فلا بد منه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى
استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ولذلك اكرمه الله بان قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما الفرق اذا كان حاله كذلك بين حال المصر والفاسق فان قلت لا يخفى ان ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر
نقص وان الكمال في الخلو عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد
الكمال وان الانتقال الى الكمال من اسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض
وقد اطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة من هذه الامور ليست واجبة اذ ادراك الكمال
غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال فاعلم انه قد سبق ان الانسان لا يخلو
في مبدا خلقته من اتباع الشهوات اصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك
ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة
الصقيلة فان تراكم ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا
كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه
كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده وصار لا يقبل الصقل
بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد
من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس
والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار وكما يرتفع الى
القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحي ظلمة
المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغني
العبد في حال من احواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار
تلك السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل
اولا صفاؤه وجلاؤه ثم اظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه يطول الصقل اذ
ليس شغل الصقيل في ازالة الصدا عن المرآة كشغله في عمل اصل المرآة فهذه اشغال طويلة
لا تنقطع اصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فاما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال
فاعلم ان الواجب له معنيان احدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر
الذي لو اشتغل كافة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلف الناس كلهم ان يتقوا الله حق تقاته
لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدي ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت
المعايش لم يتفرغ احد للتقوى بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع عمر كل واحد فيما
يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد

للوصول الى القرب المطلوب بجذبات العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والمنزه عن جميع
ما ذكرناه واجب في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلوة التطوع اي لمن يريدها فانه
لا يمكن الوصول اليها الا بها فاما من رضي بالدرجات والنقصان عن فضل صلوة التطوع فالطهور
ليست واجبة عليه لاجلها كما يقال اليد والاذن والرجل شرط في وجود الانسان يعني انه شرط
لمن يريد ان يكون انسانا كاملا ينتفع بانسانيته فيتوصل بها الى درجات علية في الدنيا
فاما من قنع باصل الحيوة ورضي بان يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترطها لمثل
هذه الحيوة حتى يد ورجل فاصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل الا الى اصل
النجاة واصل النجاة كاصل الحيوة وما وراء اصل النجاة من السعادات التي بها تستوفى النجاة
تجري مجرى الاعضاء والالات التي بها تستوفى الحياة وفيه سعي الانبياء والاولياء والعلماء والامثل
فالامثل وعليه كانت حرصهم وحواليه كانت تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية
حتى انتهى عيسى عليه السلم الى ان توسد حجرا في منامه فجاء اليه الشيطان وقال اما كنت تركت
الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك هذا الحجر تنعم بالدنيا فلم لا تضع راسك
على الارض فرمى عيسى بالحجر ووضع الراس على الارض وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم افترى
ان عيسى عليه السلام لم يعلم ان وضع الراس على الارض لا يسمى واجبا في فتاوي العامة افترى
ان نبينا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلوته حتى نزعه وشغله شراك
نعله الذي جدده حتى اعاد الشراك الخليع ما علم ان ذلك ليس بواجب في شرعه الذي شرعه لكافة
العباد فاذا علم ذلك فلم تاب منه بتركه وهل كان ذلك الا لانه راى [illegible] اثرا في قلبه امنعه عن بلوغ
المقام المحمود الذي قد هيئ له افترى ان الصديق رضي الله عنه بعد ان شرب اللبن وعرف انه من غير
وجهه وادخل اصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد ان يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر
وهو ان ما اكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن اكله بالتدارك
على حسب امكانه بتخلية المعدة منه وهل كان ذلك الا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر ان فتوى
العامة حديث آخر وان خطر طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون فتامل احوال هولاء الذين هم اعرف
خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله واياك مرة ان تغرك الحيوة الدنيا واياك
ثم اياك الف مرة ان يغرك بالله الغرور فهذه اسرار من استنشق مبادي روائحها علم ان لزوم التوبة
النصوح لازم للعبد السالك في كل نفس من انفاسه ولو عمر عمر نوح عليه الصلوة والسلام وان ذلك

وليجب على الشيء من غير مهلة ولقد صدق ابو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي
من عمره الا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله تعالى لكان خليقا ان يحزنه ذلك الى الممات فكيف
من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة اذا
ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه
منه اشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان
توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد واي جوهر انفس من هذا فاذا ضيعتها في
الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وان صرفته الى معصية فقد هلكته هلاكا فاحشا فان كنت
لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك اعظم من كل مصيبة لكن نوم الغفلة يحول
بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب
مصيبته وقد رفع الياس عن التدارك قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر
اعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة وانك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف
ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب
ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو اول ما يظهر من معاني قوله تعالى وحيل بينهم وبين
ما يشتهون واليه الاشارة بقوله من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى
اجل قريب الى قوله اجلها فقيل الاجل القريب الذي يطلب معناه انه يقول عند كشف الغطاء
للعبد يا ملك الموت اخرني يوما اعتذر فيه الى ربي واتوب واتزود صالحا لنفسي فيقول
فنيت الايام فلا يوم فيقول اخرني ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة
فيتغرغر بروحه وتتردد انفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة الياس عن التدارك وحسرة الندامة
على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الاهوال فاذا زهقت نفسه فان كانت
سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء
بالشقاوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقال
وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون
وهم كفار بل انما التوبة كما قال الله انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من
قريب ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بان يتندم عليها ويمحو اثرها بحسنة يردفها بها قبل
ان يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها

ولذلك قال الحسن لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة الى التوبة
بالتسويف كان بين خطرين عظيمين احدهما ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا
وطبعا فلا يقبل المحو والثاني ان يعاجله المرض او الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في
الخبر ان اكثر صياح اهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويد القلب
نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى ان يختطفه الاجل فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو الا من
اتى الله بقلب سليم فالقلب امانة الله عند عبده والعمر امانة الله عنده وكذا سائر اسباب الطاعة فمن خان
في الامانة ولم يتدارك خيانته فامره مخطر قال بعض العارفين ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما
اليه على سبيل الالهام احدهما اذا خرج من بطن امه يقول له عبدي قد اخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا
واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر كيف تلقاني والثاني عند
خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في امانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقاك
على الوفاء او اضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى واوفوا بعهدي
اوف بعهدكم وبقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون بيان ان التوبة اذا استجمعت
شرائطها فهي مقبولة لا محالة اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك في ان كل توبة
صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من انوار القرآن علموا ان كل قلب سليم مقبول
عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الى وجه الله تعالى وعلموا ان
القلب خلق سليما في الاصل فكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه
من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا ان نار الندم تحرق تلك الغبرة وان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب
ظلمة السيئة وانه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار
بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك لان يكون لباسه
فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لان يكون في جواره وكما ان استعمال الثوب في الاعمال الخسيسة
يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ
القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكي طاهر مقبول كما
ان كل ثوب نظيف مقبول وانما عليك التزكية والتطهير واما القبول فمبذول قد سبق به القضاء
الازلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله تعالى قد افلح من زكاها ومن [illegible]
على سبيل الحسن مرة اولى فليعلم المشاهدة بالعيان ان القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات

تأثيرا متضادا وإنما استعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار
للعلم لما بين النور والظلمة من التضاد ضرورة لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا اسمه ولم
يبق من الإيمان إلا اسمه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقته الذي غفل عن حقيقة نفسه ومن مات نفسه
ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا
يعرف نفسه فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب
يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا
يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا
القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت
الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن
منه فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على
الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنا
نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة
لا يوثق به قال الله تعالى وهو الذي يقبل التوبة عن عباده وقال تعالى غافر الذنب وقابل
التوب إلى غير ذلك من الآيات وقال صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة العبد الحديث والفرح
وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل يبسط يده
بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها في الحديث
دلالة على طلب التوبة من العبد والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو
قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال أيضا صلى الله عليه وسلم
إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينيه تائبا
فارا منه حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب
من الذنب كمن لا ذنب له ويروى أن حبشيا قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني كنت أعمل الفواحش
فهل لي من توبة قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح
الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى
يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتي لا أحجب
عنه التوبة ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات

كاينبعث الماء الرخ والانهار فيصعد الاعلى واما الآثار فقد قال سعيد بن المسيب انزل قوله
انه كان للاوابين غفورا في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله عز وجل بشر
المذنبين انهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين اني ان وضعت عليهم عدلي عذبتهم وقال
طلق بن حبيب ان حقوق الله تعالى اعظم من ان يقوم بها العبد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين
وقال عبد الله بن عمر من ذكر خطيئة الم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في ام الكتاب وروي
ان نبيا من انبياء بني اسرائيل اذنب فاوحى الله اليه وعزتي لئن عدت لاعذبنك فقال يا رب
انت انت وانا انا وعزتك لئن لم تعصمني لاعودن فعصمه الله عن ذلك وقال بعضهم ان العبد ليذنب
الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتني لم اوقعه في الذنب وقال حبيب بن ابي
ثابت يعرض على الرجل ذنوبه يوم القيمة فيمر بالذنب فيقول اما اني كنت مشفقا منك فيغفر له
ويحكى ان رجلا سال ابن مسعود عن ذنب الم به هل له من توبة فاعرض عنه ابن
مسعود ثم التفت اليه فراى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية ابواب كلها تفتح وتغلق
الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تياس وقال عبد الرحمن بن ابي القاسم
تذاكرنا مع عبد الرحمن توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال اني لارجو
ان يكون المسلم احسن حالا عند الله ولقد بلغني ان توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن
سلام رضي الله عنه لا احدثكم الا عن نبي مرسل او كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه
طرفة عين سقط عنه اسرع من طرفة عين وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم ارق
افئدة وقال بعضهم انا اعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال اخر انا من ان احرم
التوبة اخوف مني ان احرم المغفرة اي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى انه كان
في بني اسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب
في لحيته فساءه ذلك فقال الهي اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك
اتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا احببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فامهلناك
فان رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمة الله عليه ان لله عبادا نصبوا اشجار الخطايا
نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فاثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا
من غير عي ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكاس الصفا فورثوا
الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا

حتى دولة المتيم روقنا صحيفة الخطايا فاورثنا النسيم بجمع صحبة وصلنا الى ملة التصديق الرابع
تاسعها مقبلا على ترك الدنيا واستقلالنا حسنى نزل النعيم حتى ظفرنا بحصول النجاة بمعونة السلامة
وبرحمته انقلبنا منه بفناء السلوك حتى اناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ووردوا اضاءة في
الجمع وهجروا اسرار الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة المعرفة
وخاضوا بموج النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض المراقبة وصحبة اهل المكاشفة فهذه الفائدة
كافية في بيان ان كل توبة صحيحة مقبولة فان قلت اشتهر ما قالت المعتزلة من ان قبول التوبة
واجب على الله فما قولك قلت لا اخفى بما ذكرته من ان التوبة اذا كانت صحيحة مقبولة لا محالة الا انا لا نريد
القائل بقوله ان التوبة اذا اتصل بالشرايط يوجب زوال الاثم لا محالة وان العطشان اذا
شرب وجب زوال العطش فانه اذا شرب الماء معه يجب العطش فانه اذا لم العطش
لا على المتولعين في تحقيق ذلك ما يريد المعتزلة بالايجاب على الله بل القول فيه ان الطاعة
يكون مكفرة للمعصية وحسنة يكون ماحية للسيئة كما ان الماء يكون مزيلا للعطش في القدرة
متسعة خلافه لو سبقت به المشية فلا يجب على الله ولكن ما سبقت به ارادته الازلية فهو واجب
كونه لا محالة فان قلت فما من تائب الا وهو شاك في قبول توبته والشارب لا يشك في زوال
عطشه فلم يشك فيه فما قولك قلت شك في القبول لشك في وجود شرايط الصحة فان للتوبة اركانا
وشرايط دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال
فانه هل يسهل وذلك لشك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية
خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وادويته فهذا وامثاله يوجب الخوف بعد التوبة ويوجب
الشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها الركن الثاني في بيان ما عنه التوبة
وهي الذنوب صغايرها وكبايرها اعلم ان التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء الا بعد
معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل اليه الا به واجبا فمعرفة الذنوب
اذا واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله تعالى في ترك او فعل وتفصيل ذلك
يستدعي شرح التكليفات من اولها الى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها
وروابط اقسامها بانا نقسم الذنوب بالاضافة الى صفات العبد اعلم ان للانسان اخلاقا
واوصافا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن ينحصر منشأ
الذنوب في اربع صفات صفات ربوبية وصفات بهيمية وصفات شيطانية وصفات سبعية

وذلك لان طينة الانسان عجنت من اخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط من المعجون
منه اثرا من الآثار كما يقتضي السكر والخل في السكنجبين آثارا مختلفة فاما ما يقتضي النزوع
الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب
دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كانه يريد ان يقول انا ربكم الاعلى وهذا يتشعب
منه جملة كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي
كالامهات لاكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات الصفة الثانية الشيطانية التي منها
يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والامر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة
الى البدع والضلال الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء
شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة واكل مال اليتيم وجمع الحطام لاجل
الشهوات الرابعة صفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب
والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج
في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا
اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب
الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق
فهذه امهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب
خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على
اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا
حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح قسمة ثانية اعلم ان الذنوب تنقسم الى ما بين العبد
وبين الله والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلوة والصوم والواجبات
الخاصة وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكوة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض
وكل متناول من حق الغير فاما نفس او طرف او مال او عرض او دين او جاه وتناول الدين
بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج اسباب الجرأة على الله تعالى كما
يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه اغلظ
وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه ارجى واقرب وقد جاء في الخبر
الدواوين ثلثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب

العباد بينهم وبين الله تعالى فهذا الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد وأما الديوان الذي لا يغفر
فالشرك أي لا بد أن يطالب بها حتى يعفو عنها فصل اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر
وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا
ضعيف إذ قال الله تعالى إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقال تعالى الذين
يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
تكفر ما بينهن إن اجتنب الكبائر وفي لفظ آخر كفارة ما بينهن إلا الكبائر وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه الكبائر الإشراك بالله وعقوق
الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع
إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر وابن
مسعود رضي الله عنهما هن سبع وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه هن تسع وكان ابن عباس رضي
الله عنه إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى
الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف
كل ما أوجب الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة
يوم الجمعة وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما سئل عنها اقرأ من سورة النساء إلى رأس ثلاثين
آية منها عند قوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم فكل ما نهى الله عنه في هذه
السورة إلى هاهنا فهو كبيرة وقال أبو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار
وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم أربعة في
القلب وهي الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكر الله وأربعة في
اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا
أو يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك وسميت
غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار والسحر وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام
عن موضوعات الخلقة وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب وأكل مال
اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط واثنتان في
اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين
والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما

ان يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وان يسالاه حاجة فلا يعطيهما وان يسباه فيضربهما وان
جوعا فلا يطعمهما فهذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه
والنقصان منه فانه جعل اكل الربوا ومال اليتيم من الكبائر وهو جناية على الاموال ولم يذكر في
كبائر النفوس الا القتل فاما فقو العينين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب
وانواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع اطرافه لا شك في انه اكبر من اكل ماله
كيف وفي الخبر من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض اخيه المسلم
وهذا زائد على قذف المحصن وقال ابو سعيد الخدري وغيره من الصحابة رضي الله عنهم انكم
لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
من الكبائر وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن
هذا ان نظر الناظر في السرقة اهي كبيرة ام لا لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل
السرقة حرام ام لا ولا مطمع في معرفته الا بعد تقرير معنى الحرام اولا ثم البحث عن وجوده في السرقة
فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لان الكبيرة
والصغيرة من المضافات وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه وصغير بالاضافة الى
ما فوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظر صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع
يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه صغيرة بالاضافة الى قتله نعم للانسان ان يطلق على ما توعد
بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعني بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله ان يطلق
على ما اوجب الحد عليه مصيرا الى ان ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله ان يطلق
على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون
عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن ايضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات
لا حرج فيها وما نقل من الفاظ الصحابة رضي الله عنهم يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها
على شيء من هذه الاحتمالات نعم من المهمات ان يعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات
لما بينهن الا الكبائر وقوله صلى الله عليه وسلم ورمضان الى رمضان كفارة لما بينهن فان
هذا اثبات حكم للكبائر والحق في ذلك ان الذنوب منقسمة في نظر الشرع الى ما يعلم استعظامه
اياها والى ما يعلم انها معدودة في الصغائر والى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة

عددا حاصرا او حدا جامعا مانعا طلب ما لا يمكن فان ذلك لا يمكن الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم
بان يقول اني اردت بالكباير عشرا او خمسا ويفصلها فاذا لم يرد هذا بل ورد في بعض الالفاظ ثلث
من الكباير وفي بعضها سبع من الكباير ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة من الكباير وهو خارج
عن السبع والثلث علم انه لم يقصد به العدد والحصر فكيف نطمع في عدد ما لم يعدده الشرع وربما
قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل كما ابهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها
نعم لنا سبيل كلي يمكننا ان نعرف به اجناس الكباير وانواعها بالتحقيق واما اعيانها فنعرفها بالظن
والتقريب ونعرف ايضا اكبر الكباير فاما اصغر الصغاير فلا سبيل الى معرفته وبيانه انا نعلم بشواهد
الشرع وانوار البصاير جميعا ان مقصود الشرايع كلها سياقة الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة
لقايه وانه لا وصول لهم الى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله وكتبه واليه الاشارة بقوله
تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اي ليكونوا عبيدا ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف
ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية فلا بد ان يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة
الانبياء صلوات الله عليهم ولكن لا يتم هذا الا في الحيوة الدنيا وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم
الدنيا مزرعة الآخرة فصار حفظ الدنيا ايضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة اليه والمتعلق
بالدنيا من الآخرة شيئان النفوس والاموال فكل ما يسد باب معرفة الله فهو اكبر الكباير ويليه ما يسد
باب حيوة النفوس ويلي ذلك ما يسد باب المعايش التي بها حيوة النفوس فهذه ثلث مراتب
فحفظ المعرفة على القلوب والحيوة على الابدان والاموال على الاشخاص ضروري في مقصود
الشرايع كلها وهذه ثلثة امور لا يتصور ان يختلف فيها الملل فلا يجوز ان يبعث الله نبيا يريد
ببعثته اصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يامرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله او يامرهم باهلاك
النفوس واهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكباير على ثلث مراتب الاولى ما يمنع من معرفة الله
تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين العبد وبين الله هو الجهل والوسيلة
المقربة له اليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلو الجهل الذي يسمى
كفرا الامن من مكر الله تعالى والقنوط من رحمته فان هذا ايضا عين الجهل فمن عرف الله عز وجل
لم يتصور ان يكون آمنا ولا ان يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله تعالى
وصفاته وافعاله وبعضها اشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب
تعلقها بذات الله وبافعاله وشرايعه وباوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم الى ما يعلم انها داخلة

٣٣٣

عشر ذكر الكباير المذكورة في القرآن والى ما يعلم انه لا يدخل واليها تشكيه وطلب نفع الشك في
القسم المتوسط في حق محل الرتبة الثانية النفوس اذ ببقايها وحفظها يدوم الحيوة وتحصل
المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكباير وان كان دون الكفر لان ذلك يصدم عين المقصود
وهذا يصدم وسيلة المقصود اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوسل اليها بمعرفة الله تعالى ويتلو
هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الى الهلاك حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ويقع في هذه
الرتبة تحريم الزنا واللواطة لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع
النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود واما الزنا فانه لا يفوت اصل الوجود ولكن يشوش
الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم
النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم امور البهايم ما لم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن ساير
الفحول ولذلك لا يتصور ان يكون مباحا في شرع قصد به الاصلاح وينبغي ان يكون الزنا
في الرتبة دون القتل لانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع اصله ولكن يفوت تمييز الانساب
ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضي الى التقاتل وينبغي ان يكون اشد من اللواط لان الشهوة
داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم اثر الضرر بكثرته الرتبة الثالثة الاموال فانها معايش
الخلق فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل
ينبغي ان تحفظ لتبقى ببقايها النفوس الا ان الاموال اذا اخذت امكن استردادها وان
اكلت امكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي
ان يكون ذلك من الكباير وذلك باربعة طرق احدها الخفية وهي السرقة فانه اذا لم يطلع عليه
غالبا فكيف يتدارك والثاني اكل مال اليتيم وهذا ايضا من الخفية واعني به في حق الولي
والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب بخلاف
الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه
الثالث تفويتها بشهادة الزور الرابع اخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق
لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز ان تختلف الشرايع في تحريمها اصلا وبعضها اشد من بعض وكلها
دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه الاربعة جديرة بان يكون مرادة بالكباير وان لم
يوجب الشرع في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا والدين تاثيرها واما اكل
الربا فليس فيه الا اكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد ان يختلف

الشرائع في مثله ولو ادام حصل بسبب الذي هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من
الكبائر فاكل الربا وهو اكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع اولى ان لا يكون من الكبائر ان
عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم الظلم ايضا بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير
الى ان اكل دانق بالخيانة او الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك واكثر ميل
الظن الى انه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي ان يختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه
ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره ابو طالب المكي رحمه الله القذف والشرب والسحر والفرار
من الزحف وعقوق الوالدين اما الشرب لما يزيل العقل فجدير بان يكون من الكبائر وقد دل
عليه تشديدات الشرع وطريق النظر ايضا لان العقل محفوظ كما ان النفس محفوظة بل لا
خير في النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك
في انه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها
في محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم امره فيعد ذلك من الكبائر في الشرع وليس
في القوة البشرية الوقوف على جميع اسرار الشرع فان ثبت اجماع في انه كبيرة وجب الاتباع
والا فللتوقف فيه مجال واما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال
في الرتبة ولتناولها مراتب واعظمها التناول بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع
امره واظن ظنا غالبا ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا
الاعتبار لا يكفره الصلوات الخمس وهو المعني بالكبيرة الآن ولكن من حيث انه يجوز ان
يختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز ان يرد الشرع
بان العدل الواحد اذا رأى انسانا يزني فله ان يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته
فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح
الواقعة في رتبة الحاجات فاذا هذا ايضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فاما من
ظن ان له ان يشهد وحده او ظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي ان يجعل في حقه
من الكبائر واما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من
هلاك نفس او مرض او غيره واما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا ايضا ينبغي ان
يكون من حيث القياس في محل التوقف واذا قطع بان سب الناس بكل شيء سوى الزنا
وضربهم والظلم لهم بغصب اموالهم واخراجهم من مساكنهم وبلادهم وجلائهم من اوطانهم ليس

الكبائر اذ لم ينقل ذلك بل الشرع عشرة كبيرة وعن اكثرها ما يقال فيه فالتوقف في هذا ايضا غير بعيد لكن
الغضب بعد على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فاذا رجع حاصل الامر الى انا نعني بالكبيرة ما لا تكفره
الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الى ما علم انه لا تكفره قطعا والى ما ينبغي ان تكفره والى
ما يتوقف فيه بعضه مظنون بالنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص
كتاب او سنة واذا لا مطمع فيهما فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على
استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم ان كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا
جاز ان يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها
في الدنيا من حيث انها كبيرة بل موجبات الحدود معلومة باساميها كالسرقة والزنا وغيرهما وانما حكم
الكبيرة ان الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا امر يتعلق بالآخرة والابهام اليق به حتى يكون الناس
على وجل وحذر فلا يجترئون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر
يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ولكن اجتناب
الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فكف
نفسه عن الوقاع واقتصر على نظر او لمس فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع اشد تاثيرا في
تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا او لم يكن امتناعه الا
بالضرورة للعجز او كان قادرا ولكن امتنع لخوف امر آخر فهذا لا يصلح للتكفير اصلا وكل من لا يشتهي
الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي
والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع
فمجاهدة النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع فكل هذا
احكام اخروية يجوز ان يبقى بعضها في محل الشك ويكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها الا
بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفة فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه
انه صلى الله عليه وسلم قال الصلوة الى الصلوة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلث اشراك
بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ما ترك السنة قال الخروج من الجماعة ونكث الصفقة ان
يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وامثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل
على حد جامع فلا يزال مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكبائر والورع عن
الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من احكام الدنيا فاعلم انا لا نخصص رد الشهادة

بالكبائر فلا قلنا انه من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويختم بخاتم الذهب ويشرب من اواني الذهب
والفضة لا تقبل ولم يذهب احد الى ان هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب
الحنفي النبيذ حددته ولا ارد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل انه
الشهادة نفيا واثباتا لا تقدر على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة الا ما لا يخلو
الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض
الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف واكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب
زائدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل
والولد جميع ما يحتاجون اليه في امر الدين فهذه ذنوب لا يتصور ان ينفك الشاهد عن قليلها
او كثيرها الا بان يعتزل الناس ويتجرد لامر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع
المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات وليس لبس
الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة اهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات
وامثال هذه الصغائر من هذا القبيل قال فمنهج هذا المنهاج ينبغي ان ينظر في قبول الشهادة
وردها لا الى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها اثر
في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة
تصير كبيرة بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على
الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر بيان كيفية توزع الدرجات والدركات
الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب
والملكوت واعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك
واحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة
فانا الآن نتكلم في الدنيا وهي عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم
الملكوت في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال الله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما
يعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب
الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا الا في كسوة
الامثال واعني بكسوة الامثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلاثة امثلة فقد

جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النسا
فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل الصبح فقال صدقت وجاء آخر فقال رأيت كأني
أصب الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإنها أمك لأن
الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا الجارية كانت أمه وقد سبي في صغره
وقال آخر رأيت كأني أقلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان
كما قال والمعبر من أوله إلى آخره مثاله يعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعني بالمثل أداء المعنى
في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر
إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا
إذ قد صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق
إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في نوم والنائم
لا يكشف له شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ومندرج في علم الآخر :
ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال ومناقضته عنده كقوله صلى الله عليه
وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فثار الملحد ويكذبه ويستدل به
على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما
وهل هذا إلا محال ولكن الله عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره تعالى فقال وما يعقلها
إلا العالمون ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل هذا هو
الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوبا
ينقطع ولا يعود قط لأن المذبوح وقع اليأس عنه فإذا المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في
رؤيته ويرجع حقيقته إلى أن الملك الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على
ما في اللوح المحفوظ عرفه ما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال
فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي
بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى الأفهام بالأمثلة حكمة من الله تعالى ولطفا
بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت يوم
القيامة في صورة كبش مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس عن الموت وقد جبلت
القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب

تراهما المتباينين فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود ان تعريف توزع الدرجات والدركات على
الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب الامثال فليفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته فنقول
الناس في الآخرة ينقسمون اصنافا ويتفاوتون وتتفاوت درجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل
تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى اصلا
فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا
تبديل لها الا انا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس في
الآخرة ينقسمون بالضرورة الى اربعة اقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثاله
من الدنيا ان يستولي ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة
ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلي بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون
فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا
له في اصل الدولة ولا يعذب الا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلي
الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من ابلى عمره
في الخدمة والنصرة ثم ينبغي ان يكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في خدمتهم
واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة او تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة وتعذيب
المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد انواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم
فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تنحصر فكذلك فافهم ان الناس في الآخرة هكذا
يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون
ينقسمون الى من يحلون في جنات عدن او جنات المأوى او جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون
الى من يعذب قليلا والى من يعذب الف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار
كما ورد في الخبر وكذا الهالكون الآيسون من رحمة الله تعالى تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات
بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها الرتبة الاولى وهي الهلاك
ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله عز وجل اذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من
رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين
المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الاخروية في القرب من الله والنظر الى
وجهه وذلك لا ينال اصلا الا بالمعرفة التي يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون

والمكذبون فهم الآيسون من رحمة الله تعالى ابد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين
وبانبيائه المرسلين وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه
وبين ما يشتهيه فهو لا محالة يكون محترقا في نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا
من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين انما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقال
من يعبد الله لعوض فهو لئيم اذ يعبده لطلب جنته او لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب
الا ذاته فقط فاما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها واما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق نار
الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ونار جهنم لا تشتغل الا بالاجسام والم الاجسام
يستحقر مع الم الفؤاد ولذلك قيل وفي فؤاد المحب نار هوى احر نار الجحيم ابردها ولا ينبغي ان
تنكر هذا في عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد رؤي من غلب عليه الوجد فعدا
على النار وعلى اصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان
يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لان الغضب
نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد اشد
من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس المهلك النار والسيف
الا من حيث انه يفرق بين جزءين ارتبط احدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الاجسام
فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به برابطة تألف اشد احكاما من تأليف الاجسام
فهو اشد ايلاما ان كنت من ارباب البصائر وارباب القلوب ولا يستبعد ان لا يدرك من لا قلب
له شدة هذا الالم ويستحقره بالاضافة الى الم الجسم فالصبي لو خير بين الم الحرمان عن الكرة
والصولجان وبين الم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بالم الحرمان عن رتبة السلطان
اصلا ولم يعده ذلك الما وقال العدو في الميدان مع الصولجان احب الي من سرير الملك والسلطان
مع الجلوس عليه بل من يغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين لذة الجاه التي
لاختار الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى الذي يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي
بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن سرت فيه صفات البهائم والسباع ولم يظهر فيه الصفات
الملكية التي لا يناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها الا البعد والحجاب
وكما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الآذان فلا تكون هذه الصفة الا في القلب
فمن لا قلب له لم يكن له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصور والالوان

وليس لكل انسان قلب ولكان لما تم قوله تعالى إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم
يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ولست أعني بالقلب هذا اللحم الذي يكتنفه عظام الصدر بل
أعني به السر الذي هو من عالم الأمر وهذا اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر
الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعا ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه قل الروح
من أمر ربي وهو الملك والأمير لأن بين عالم الأمر وبين عالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق
وهي اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه
عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روائح المعنى والحقيقة المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم
إن الله خلق آدم على صورته وينظر بعين الرحمة إلى الجامدين على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في
طرف تأويله وإن كان رحمته على الجامد على اللفظ أكثر من رحمته على المتعسف في التأويل
لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركا في مصيبة الحرمان عن حقيقة الأمر
فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمة يضن بها من يضن ومن يؤت
الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولنرجع إلى الغرض فقد أرخينا الطول وأطلقنا النفس في أمر هو أعلى
من علوم المعاملة التي قصدناها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال
المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تنحصر عن الحصر
فلذلك لم نورده الرتبة الثانية رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في
الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا تعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ
إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم ومعناه أن
تذر بالكلية غير الله تعالى ومعنى قوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط
المستقيم الذي لا يتم التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل
الصراط الموصوف في الآخرة لا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع
الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي
لا محالة نقصانا في درجة القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان
ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن
شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة فإنما يكون بسبب أمرين أحدهما
قوة الإيمان وضعفه والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من

لا محالة قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا
ونذر الظالمين فيها جثيا ولذلك قال الخائفون من السلف انما خوفنا لانا تيقنا انا على
النار واردون وشككنا في النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد
الف عام وانه ينادي يا حنان يا منان قال الحسن يا ليتني كنت ذلك الرجل واعلم ان في
الاخبار ما يدل على ان آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وان الاختلاف بين
المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى انه يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون
له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر
وسائر المدد وان الاختلاف بالشدة لا نهاية لاعلاه وادناه التعذيب بالمناقشة في الحساب
كما ان الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب
بالسياط وقد يعذب بانواع اخر من العذاب ويتطرق الى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة
والشدة وهو اختلاف الانواع اذ ليس من يعاقب بمصادرة المال فقط كمن يعذب باخذ المال
وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اليد واللسان والانف والاذن
فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف
قوة الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها اما شدة العقاب
فبشدة قبح السيئات وكبرها واما كثرته فبكثرتها واما اختلاف انواعه فباختلاف انواع السيئات
وقد انكشف هذا لارباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعني بقوله تعالى
وما ربك بظلام للعبيد وبقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وبقوله وان ليس للانسان
الا ما سعى وبقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد في
الكتاب والسنة في كون الثواب والعقاب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم
فيه وجانب العفو والرحمة ارجح اذ قال تعالى فيما حكى عنه نبيه صلى الله عليه وسلم سبقت رحمتي
غضبي وقال تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما فاذا هذه الامور الكلية
من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة
فاما التفصيل فلا يعرف الا ظنا ومستنده ظواهر الاخبار ونوع حدس يستمد من انوار الاستبصار
بعين الاعتبار فنقول كل من احكم اصل الايمان واجتنب جميع الكبائر واحسن جميع الفرائض اعني
الاركان الخمسة ولم يكن منه الا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه ان يكون عذابه بالمناقشة

في الحساب فقط فانه اذا اوجب رجحت حسناته على سيئاته اذ ورد في الاخبار ان الصلوات
الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارة لما بينهن وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر
للصغائر واقل درجات التكفير ان يدفع العذاب ان لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد
ثقلت موازينه فينبغي ان يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب
في عيشة راضية نعم الحاقه باصحاب اليمين او بالمقربين ونزوله في جنات عدن او الفردوس
الاعلى فذلك يتبع اصناف الايمان لان الايمان ايمانان ايمان تقليدي كايمان العوام يصدقون
بما يسمعون ويستمرون عليه وايمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله تعالى حتى ينكشف
فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح ان الكل الى الله مرجعه ومصيره اذ ليس في الوجود الا الله
وصفاته وافعاله فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الاعلى وهم على غاية
القرب من الملأ الاعلى وهم ايضا على اصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم [illegible]
بحسب تفاوت معرفتهم بالله ودرجات العارفين في المعرفة لا تحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله
غير ممكن وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق
لهم من الله تعالى في الازل فالطريق الى الله تعالى لا نهاية لمنازله والسالكون سبيل الله لا نهاية
لدرجاتهم واما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من اصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين
وهم ايضا على درجات فالاعلى من درجات اصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادنى
من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر وادى الفرائض كلها اعني الاركان
الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج فاما من
ارتكب كبيرة او كبائر او اهمل بعض اركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل
التحق بمن لم يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ
اصلا وان مات قبل التوبة فهذا امر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا
لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لا سيما اذا كان ايمانه تقليديا وان كان جزما فهو قابل
للانحلال بادنى شك وخيال والعارف البصير ابعد من ان يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما
ان ماتا على الايمان يعذبان الا ان يعفو الله عنهما بزيد على عذاب المناقشة في الحساب
ويكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر
ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف اصناف السيئات وعند انقضاء مدة العقاب

نزل الابد المتلذذون في درجات اصحاب اليمين والعارفون المستغرقون في اعلى عليين فهو اخر
من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشر اضعاف ولا تظن ان المراد به تقديره بالمساحة للاطراف
الاجسام بان يقابل فرسخ بفرسخ او عشرة فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا
كقول القائل اخذت منه جملا واعطاه عشرة امثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فاعطاه
مائة دينار فان لم تفهم من المثل الا المثل في الوزن والثقل فلا يكون مائة دينار لو وضعت
في كفة الميزان والجمل في كفة اخرى عشر عشرها بل هو موازنة معاني الاجسام وارواحها
دون اشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه
المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة امثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية
وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والابل لو اعطاه جوهرة وزنها مثقال
قيمتها مائة دينار وقال اعطيته عشرة امثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهري
فان روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر ولذلك يكذب به الصبي بل
القروي والبدوي ويقول ما هذه الجوهرة الا حجر وزنها مثقال ووزن الجمل الف الف مثقال
فقد كذب في قوله اني اعطيته عشرة امثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل له
الى تحقيق ذلك منه الا بان ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل في قلبه النور الذي يدرك به
ارواح الجواهر وسائر الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد
القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة اذ يقول الجنة في السموات كما ورد
في الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة امثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ
عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكان الجوهري مرحوما اذا ابتلي بالبدوي
والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا ابتلي بالبليد الابله في تفهيم هذه الموازنة
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلثة عالما بين الجهال وغني قوم افتقر وعزيز قوم ذل
والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب وما قاسوه من امتهم لقصور عقول الامة فمنه هم وامتحان
وابتلاء من الله عز وجل وبلاء سلطه بسبق بتوكيد القضاء الازلي وهو المعنى بقوله صلى الله عليه
وسلم البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظنن ان البلاء بلاء ايوب عليه السلم
فحسب وهو الذي نزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام ايضا كان من البلاء العظيم اذ ابتلي
بجماعة كانت لا تزيدهم دعوته الى الله الا فرارا ولذلك لما اوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض

الناس فقال صلعم أما في مرضه لقد اوذيت باكثر من هذا فصبر فاذا كان لا يخلو الانبيا عن الابتلا
بالجاحدين فلا يخلو العلماء والاوليا عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك ترى انك الاوليا من
ضروب من الايذاء وانواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة
عليهم بالكفر والخروج من الدين وواجب ان يكون اهل المعرفة عند اهل الجهل من الكافرين
كما يجب ان يكون المتعاطي عن الجهل الكبير جهرة صغيرة عند الجاهلين من المبتدعين المحسنين
فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله صلى الله عليه وسلم انه يعطى آخر من يخرج من النار
مثل الدنيا عشر مرات واجتهد ان لا تعجز عن درك النكتة والدقيقة التي ذكرناها فانما انت
مفارق للعاجزين منها بسر اتى عرضها على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها
واشفقن منه فادراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا في عالم ذلك السر
فمن عطل من ذلك فعطله وافسده فهو الذي اهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالاعراض
عنها والله تعالى يقول ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم فكل من لم يدرك الا ما يدرك
بالحواس فقد نسي الله اذ ليس في استطاعته مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله
انساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الرقي الى افق الملأ الاعلى وخان
الامانة التي اودعه الله تعالى وانعم بها عليه كافرا لنعمته ومتعرضا لنقمته الا انه اسوء حالا
من البهيمة تخلص بالموت واما هذا فعنده امانة سترجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة
ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفاني وغربت
وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند
من مغربها وتعود الى باريها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة
المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الربوبية والمظلمة ايضا راجعة الى الحضرة الربوبية اذ المرجع
والمصير للكل اليه الا انها ناكسة رؤسها من جهة اعلى عليين الى جهة اسفل السافلين
ولذلك قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم فبين انهم عند ربهم
فبين انهم عند ربهم الا انهم منكوسون معكوسون قد انقلبت وجوههم الى اقفيتهم
وانتكست رؤسهم من جهة فوق الى جهة اسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهد
طريقه فنعوذ بالله من الضلال والتردد في منازل الجهال فهذا حكم اقسام من يخرج من النار
ويعطى مثل عشرة امثال الدنيا او اكثر ولا يخرج من النار الا موحد ولست اعني بالتوحيد ان تقول

بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا في عالم الملك فيدفع السيف
عن رقبته وايدي الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال الحياة فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع
القول باللسان وانما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد ان لا يرى الامور كلها الا من الله
عز وجل وعلامته ان لا يغضب على احد من الخلق بما يجري عليه اذ لا يرى الوسائط وانما يرى مسبب
الاسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد
مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن في قلبه مثقال دينار فهو
اول من يخرج من النار وفي الخبر يقال اخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من ايمان وآخر
من يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الايمان وما بين المثقال والذرة على تفاوت درجاتهم
يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب
المثل كما ذكرناه من الموازنة بين اعيان الاموال وبين النقد واكثر ما يدخل الموحدين النار
مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فاما بقية السيئات فيتسارع العفو
والتكفير اليها ففي الاخبار ان العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات امثال الجبال
لو سلمت له لكان من اهل الجنة فيقوم اصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا واخذ مال هذا
وضرب هذا فيقتص من حسناته حتى لا يبقى حسنة فتقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته وبقي
طالبون كثير فيقال القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة
غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ تنقل اليه عوضا عما ظلم به وقد
حكي عن ابن الجلاء ان بعض اخوانه اغتابه ثم ارسل اليه يستحله فقال لا افعل ليس في صحيفتي
حسنة افضل منها فكيف امحوها وقال ايضا ذنوب اخواني من حسناتي اريد ان ازين
بها صحيفتي فهذا ما اردنا ان نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة
والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر الاسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض انه يموت
لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك
ظن يصيب في اكثر الاحوال ولكن قد يثوب الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب
وقد يساق الى ذي العارض الخفيف اجله من حيث لا يطلع عليه وذلك لاسرار امضاها في
الخفية في ارواح الاحياء وغموض الاسباب التي رتبها مسبب الاسباب بقدر معلوم اذ
ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لها اسباب خفية ليس في

قوة البشر الاطلاع عليها بعجز عن ذلك السبب الخفي المفضي الى النجاة بالعفو وايضا ربما يقتضي
الهلاك بالغضب والانتقام وربما وذلك من المشية الازلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا
ان يجوز العفو عن العاصي وان كثرت سيآته الظاهرة والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته
الظاهرة فان الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو اغمض من ان يطلع عليه صاحبه
فكيف غيره ولكن قد انكشف لارباب القلوب انه لا يعفو عن عبد الا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ولا يغضب
الا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الاعمال والاوصاف
ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى ان الله
لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للانسان الا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس
بما كسبت رهينة فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بانفسهم غير الله ما بهم مصداقا لقوله تعالى
ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وهذا كله قد انكشف لارباب القلوب انكشافا اوضح
من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة
القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشان في انفتاح بصيرة القلب والا فما تراه بها بعد الانفتاح
فلا يتصور فيه الكذب واليه الاشارة بقوله ما كذب الفؤاد ما راى الرتبة الثالثة رتبة الناجين
واعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا
فيعذبوا ويشبه ان يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم
تبلغهم الدعوة في اطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود
ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من اهل الجنة ولا من اهل النار
بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف وحلول
طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والاخبار ومن انوار الاعتبار فاما الحكم على
التعيين كالحكم على الصبيان منهم بهذا فمظنون وليس مستيقنا والاطلاع عليه تحقيقا
في عالم النبوة ويبعد ان يرتقي اليه رتبة العلماء والاخبار والآثار في حق الصبيان ايضا
متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة
فانكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ما يدريك فهذا الاشكال والاشتباه اغلب في هذا
المقام الرتبة الرابعة الفائزون وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون
فان المقلد وان كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من اصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون

ويلتحق بهم ولا يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله تعالى
بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم هو الذي اجمله قوله تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم
من قرة اعين وقوله في حكاية عن الله اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور ان يخطر على قلب بشر في هذا
العالم فاما الحور والقصور والفواكه واللبن والعسل والخمر والحلي والاساور فانهم لا يحرصون
عليها ولو اعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله الكريم فهي غاية السعادات
ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمها الله كيف رغبتك في الجنة فقالت الجار ثم
الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شيء سواه حتى عن انفسهم
ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر الى وجهه او الفكر فيه فانه
في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بانه
فني عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه
متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة
الى قرة عين لا يتصور ان تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور ان تخطر صورة الالوان
والالحان على قلب الاصم والاكمه الى ان يرتفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله
ويعلم قطعا انه لم يتصور ان يخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه
ينكشف فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون
فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات بيان ما تعظم به الصغائر
من الذنوب اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة
مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو
عنها ارجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر
على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلعم
خير الاعمال ادومها وان قل والاشياء تستبان باضدادها واذا كان النافع من العمل هو
الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات
اذا دام عظم تاثيره في اظلام القلب الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق
ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل

عنه من غير رشاحة سابقة ومعاودة سالفة فكل كبيرة تكشف عنها صغائر سابقة ولاحقة
ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها ارجى من صغيرة
واظب الانسان عليها عمره ومنها ان يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد
من نفسه صغر عند الله وكلما استصغره كبر عند الله لان استعظامه يصدر عن نفور القلب
وكراهيته وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الالفة به وذلك يوجب
شدة الاثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات
ولذلك لا يواخذ بما يجري عليه في الغفلة فقد جاء في الخبر المومن يرى ذنبه كالجبل فوقه
يخاف ان يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على انفه فاطاره وقال بعضهم الذنب
الذي لا يغفر قول العبد ليت كل شي عملته مثل هذا وانما يعظم الذنوب في قلب المومن
لعلمه بجلال الله فاذا نظر الى عظم من عصى به راى الصغير كبيرا وقد اوحى الله تعالى الى بعض انبيائه
لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من
واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك
قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين رحمهم الله انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم
من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات اذ كانت معرفة
الصحابة اتم وكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله كبائر وبهذا السبب يعظم
من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامي في امور لا يتجاوز في امثالها عن العارف
لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها
واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة
عند العبد كبرت الصغيرة وعظم اثرها في تسويد قلبه حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه
ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول اما رأيتني كيف مزقت عرضه ويقول المناظر
في مناظرته اما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى اخجلته وكيف استخففت به
وكيف لبست عليه ويقول المعامل في تجارته اما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف
خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وامثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب
مهلكات واذا دفع اليها العبد وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي ان يكون في مصيبة
وتاسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله فالمريض الذي يفرح بان ينكسر

اذا زمانا ليس فيه دواء حتى يخلص من الم المشي لا يرجى شفاؤه ومنها ان يتهاون بستر الله
عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما فيظن ان تمكنه
من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لامنه من مكر الله تعالى وجهله بمكامن الغرور
بالله تعالى كما قال تعالى ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها
فبئس المصير ومنها ان يأتي الذنب ويظهره بان يذكره بعد اتيانه او يأتيه في مشهد غيره فان
ذلك جناية منه على ستر الله تعالى الذي اسدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله
فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فغلظت به فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل
عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفي الخبر كل الناس معافى
الا المجاهرين يبيت احدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله عليه ويتحدث بذنبه
وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران
لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك
قال الله تعالى والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف
وقال بعض السلف ما انتهك المرء من اخيه حرمة اعظم من ان يساعده على معصيته ثم يهونها
عليه ومنها ان يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس
العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب واخذه مال الشبهة من اموال السلاطين ودخوله
على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاقه اللسان في الاعراض
وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا
الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا
في العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه وفي الخبر من سن سنة سيئة
فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء وقال الله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم
والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس رضي الله عنه ويل للعالم
من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم مثل
زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق اهلها وفي الاسرائيليات ان عالما كان يضل
الناس بالبدعة ثم ادركته توبة فعمل في الاصلاح دهرا فاوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك
لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن اضللت من عبادي فادخلتهم النار فهذا

يتبع اثارهم العلماء عظيم خطرهم وعليهم وظيفتان احديهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما يتضاعف
اوزارهم على الذنوب فكذلك تتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل
الى الدنيا وقنع منها باليسير من الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي
به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل مالت الطباع ممن دونه الى التشبه به
ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع حطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع
ذلك فحركات العلماء في طرفي الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران
وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي تكون بها التوبة الركن الثالث في تمام
التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا
وذلك الندم اورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم
والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شرط فلا بد من بيانها اما العلم فالنظر فيه نظر
في سبب التوبة وسيأتي واما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته
طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء فمن استشعر عقوبة نازلة بولده او ببعض
اعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه واي عزيز اعز عليه من نفسه واي عقوبة اشد عليه من
النار واي سبب ادل على نزول العقوبة من المعاصي واي مخبر اصدق من الله ورسوله ولو حدثه
انسان واحد يسمى طبيبا ان مرض ولده المريض لا يبرأ وانه سيموت منه لطال في الحال حزنه وليس
ولده باعز من نفسه ولا الطبيب باعلم ولا اصدق من الله تعالى ورسوله ولا الموت باشد
من النار ولا المرض ادل على الموت من المعاصي على سخط الله والتعرض بها للنار فألم الندم
كلما كان اشد كان تكفير الذنوب به ارجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي
الخبر جالسوا التوابين فانهم ارق افئدة ومن علامته ان تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه
بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهة وبالرغبة نفرة وفي الاسرائيليات ان الله تعالى
قال لبعض انبيائه عليهم السلام وقد سأله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد
سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتي لو شفع فيه اهل السموات والارض ما
قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه فان قلت فالذنوب هي اعمال
مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فاقول من تناول عسلا كان فيه سم فلم يدرك
بالذوق واستلذه ثم مرض وطال الم وتناثر شعره وفلجت اعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه

مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للطعام فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل ام لا فان
كنت لا تجد هذا المشاهدة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم ايضا لشبهه به فوجدان
التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بان كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل
السم ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة
والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام
الندم وينبغي ان يدوم الى الموت وينبغي ان يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وان لم يكن قد
ارتكبها من قبل كما يجد خائف السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم ان فيه مثل
ذلك السم اذ لم يكن ضرره في العسل بل فيما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من
حيث انه سرقة وزنا بل من مخالفة امر الله وذلك جار في كل ذنب واما القصد الذي ينبعث
منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له واداء كل
فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام
الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت وشرط صحته فيما يتعلق بالماضي ان يرد فكره الى اول
يوم بلغ فيه بالسن او الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما
ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها والى المعاصي ما الذي قارفه منها
فان كان قد ترك صلاة او صلاها مع ثوب نجس او صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط
النية فيقضيها عن آخرها فان شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر
الذي يستيقن انه اداه ويقضي الباقي وله ان يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل
التحري والاجتهاد واما الصوم فان كان قد تركه في سفر او مرض ولم يقضه او افطر عمدا
او نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه
واما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من اول ملكه لا من زمان بلوغه فان الزكاة
واجبة في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته وان اداه لا على وجه يوافق مذهبه
بان لم يصرفها الى الاصناف الثمانية او اخرج البدل وهو على مذهب الشافعي فيقضي جميع
ذلك فان ذلك لا يجزئه اصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تامل شاف
ويلزمه ان يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء واما الحج فان كان قد استطاع في
بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد افلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه

الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه ان يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا
مال فعليه ان يسال الناس ليصرف اليه من الزكوات والصدقات ما يحج به فانه ان مات
قبل الحج مات عاصيا قال النبي صلى الله عليه وسلم من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء
نصرانيا والعجز الطارى بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات
وتداركها واما المعاصي فينبغي ان يفتش من اول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه
ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع ايامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان
معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين
الله تعالى من حيث انه لا يتعلق بمظالم العباد كالنظر الى غير محرم وقعود في المسجد مع الجنابة
ومس المصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهي وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم
العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبان يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث
المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فياتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات
اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى
ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر
القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا
باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر
شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو اطيب منه واحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن
وانما المقصود سلوك طريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب
بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك
ينبغي ان يمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة
والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه اصدق والثقة به
اكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا في المحو فهذا حكم
ما بينه وبين الله تعالى ويدل على ان الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا راس كل خطيئة واثر اتباع
الدنيا في القلب السرور بها والانس اليها والحنين اليها فلا جرم كان كل اذى يصيب المسلم
فينبو قلبه عن الدنيا بسببه يكون كفارة له اذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم
لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عائشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم

له وان يكثر ما يسلط الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه فقد قيل ان الهم الذي يدخل على
القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع
فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم ان الحب
له خطيئة والحرمان منه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روي ان جبريل عليه السلم دخل على
يوسف عليه السلم في السجن فقال له كيف تركت ذلك الشيخ الكبير الكئيب فقال قد حزن عليك
حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال اجر مائة شهيد فاذا الهموم ايضا مكفرات لحقوق الله
فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى واما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله
فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر وترك مثله
في المستقبل والاتيان بالحسنة التي هي ضدها فيقابل ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر
غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول اعراضهم بالغيبة والقدح بالثناء على اهل
الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان
ذلك احياء لان العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه
فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا يعرف ان ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو
مشهود له في الشرع حيث ورد تكفير القتل باعتاق رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه
ما لم يخرج من مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس او الاموال او الاعراض او القلوب اعني
الايذاء المحض اما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما
منه او من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص
فان لم يعرف ذلك ولي الدم وجب عليه ان يعرف ويحكمه في روحه فان شاء عفا عنه وان
شاء قتله ولا تسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى او شرب او سرق او قطع
الطريق او باشر ما يجب فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة ان يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس
من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه ان يتستر بستر الله ويقيم حده على نفسه بانواع المجاهدة
والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله قريب من التائبين النادمين فان رفع امره الى الوالي
حتى اقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل ما روي ان ماعز
بن مالك اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني قد ظلمت نفسي وزنيت
واني اريد ان تطهرني فرده فلما كان من الغد اتاه فقال يا رسول الله اني قد زنيت فرده الثانية

وانت انه فقال ابه جنون فاخبر انه ليس بمجنون فحفر له حفرة ثم امر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين فقايل يقول
لقد هلك لقد احاطت به خطيئته وقايل يقول ما توبة افضل من توبة ماعز فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين امة لوسعتهم وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى وانه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك ان تردني
كما رددت ماعزا فوالله انى لحبلى فقال اما الآن فاذهبي حتى تلدي فلما ولدت اتته بالصبي
في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتته بالصبي في
يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد فطمته وقد اكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين
ثم امر بها فحفر لها الى صدرها وامر الناس فرجموها فاقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى راسها
فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد
فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم امر بها فصلى عليها ودفنت
واما القصاص وحد القذف فلا بد من تحليل المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله
بغصب او خيانة او غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زايف او ستر عيب من المبيع او نقص
اجرة اجير او منع اجرته فكل ذلك يجب ان يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من اول مدة وجوده
فان ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولي قد قصر فيه
فان لم يفعل كان ظالما ويكون مطالبا به في القيامة اذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ
وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب
في القيمة وليناقش قبل ان يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه
فاذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب اسامي اصحاب
المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليستحلهم او ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على
الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل
واحد منهم ان يفعل ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى تفيض
منه يوم القيمة فيؤخذ حسناته وتوضع في موازين ارباب المظالم وليكن كثرة حسناته بقدر كثرة
مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق
كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة
المظالم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغي ان يكون تشمره للحسنات والوقت

فيبقى له من تشمير الذكر كان في المعاصي في جميع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة
في ذمته اما امواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا
فعليه ان يتصدق به فان اختلط الحرام بالحلال عرف قدر الحرام بالاجتهاد وتصدق
بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام واما الجناية على القلوب بمشافهة
الناس بما يسوءهم او يعيبهم في الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه او آذى
قلبه بفعل من افعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات او غاب فقد فات
امره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ عوضا في القيامة واما من وجده واحله بطيب
قلب منه فذلك كفارته وعليه ان يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي
وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة
ياخذها من حسناته او يحمله من سيئاته فان كان في جملة جناياته على الغير ما لو ذكره وعرفه
لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته او اهله او نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه
يعظم اذاه مهما شافهه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له الا ان يستحل منها ثم تبقى له مظلمة
الميت والغائب فاما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته
وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه ان
يتلطف به ويسعى في مهماته واغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان
الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه
سمحت نفسه بالاحلال فان ابى الا الاصرار فينبغي ان يكون تلطفه به واعتذاره اليه من
جملة حسناته التي يمكن ان يجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه
بتودده وتلطفه كقدر سعيه في ايذائه حتى اذا قاوم احدهما الآخر او زاد عليه اخذ ذلك
منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن اتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول
ومن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء ام ابى فكذلك يحكم في صعيد القيامة احكم
الحاكمين واعدل المقسطين وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل
عن اعلم اهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من
توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن اعلم اهل الارض فدل على رجل عالم فقال انه قتل

ماية نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا
فان بها اناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سو
فانطلق حتى اذا انتصف الطريق اتاه الموت فاختصمت فيه ملايكة الرحمة وملايكة العذاب
فقالت ملايكة الرحمة جاء تايبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى وقالت ملايكة العذاب انه لم يعمل
خيرا قط فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى
ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه ادنى الى الارض التي اراد فقبضته ملايكة الرحمة
وفي رواية فكان الى القرية الصالحة اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفي رواية فكان
الى القرية فاوحى الله تعالى الى هذه ان تباعدي والى هذه ان تقربي وقال قيسوا ما
بينهما فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فبهذا يعرف انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات
ولو بمثقال فلا بد للتايب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي فاما العزم
المرتبط بالاستقبال فهو ان يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق ان لا
يرجع الى تلك الذنوب والى امثالها كالذي يعلم في مرضه ان الفاكهة تضره مثلا فيعزم
عزما جزما انه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتاكد في الحال
وان كان يتصور ان تغلبه الشهوة في ثاني الحال لكن لا يكون تايبا ما لم يتاكد عزمه في
الحال ولا يتصور ان يتم ذلك التايب في اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم
واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال او كانت له حرفة يكتسب بها قدر
الكفاية فليقتصر عليه فان راس المعاصي اكل الحرام فكيف يكون تايبا مع الاصرار عليه
ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في الماكولات والملبوس
فقال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرات لم يبتل بها وقال
آخر من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا ومن مهمات التايب
اذا لم يكن عالما ان يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة
وان لم يوثر العزلة لم يتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب كالذي
يتوب عن الزنا والشرب والغصب مثلا وليس هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس
ان هذه التوبة لا تصح وقال قايلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول
لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد اصلا بل وجوده كعدمه فما

اعلم حفظك الله انا نسلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول
لمن قال نعم ان اردت ان التوبة عن بعض الذنوب توجب نيل ادنى درجات النجاة والفوز فهذا ايضا نسلمه
بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا اسرار العفو من الله وان قال من ذهب
الى انه لا تصح اني اردت به ان التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا
لكونها سرقة ويستحيل ان يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة
لهما اذ من يتوجع على ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء
كان بالسيف او بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة او
بالزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتا للمحبوب
من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصي دون بعض ولو جاز هذا لجاز ان
يتوب من شرب الخمر من احد الدنين دون الاخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية في الخمرين
واحدة وانما الدنان ظروف فكذلك اعيان المعاصي الات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر
واحدة فاذا معنى عدم الصحة ان الله تعالى وعد التائبين رتبة تلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور
الندم على بعض المماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول
نقول ان العقد لم يصح اي لا يترتب عليه الثمرة وهي الملك وتحقيق هذا ان ثمرة مجرد الترك ان ينقطع
عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور
الندم الا لكونه معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهذا كلام مفهوم وافي مستنطق المنصف
بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا يخلو اما ان يكون عن الكبائر دون
الصغائر او عن الصغائر دون الكبائر او عن كبيرة دون كبيرة اما التوبة عن الكبائر دون الصغائر
فممكن لانه يعلم ان الكبائر اعظم عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر اقرب الى
تطرق العفو اليه فلا يستحيل ان يتوب عن الاعظم ويتندم عليه كالذي يجني على اهل الملك وحرمه
ويجني على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا الجناية على الدابة والندم بحسب استعظام
الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار
ولم يكن احد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا
شديدا ويحذره السكر تحذيرا اخف منه على وجه يشعره بانه ربما لا يظهر ضرر السكر اصلا فيتوب
المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان اكلهما جميعا بحكم شهوته

نعم على اكل العسل دون السكر الثاني ان يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا ايضا ممكن لاعتقاده
ان بعض الكبائر اشد واغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه
بان ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع اليه العفو فهذا ايضا ممكن كما في تفاوت الصغائر
والكبائر لان الكبائر ايضا متفاوتة في انفسها وفي اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر
التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح له ان الخمر مفتاح الشرور
وانه اذا زال العقل ارتكب المعاصي وهو لا يدري فيترجح شرب الخمر عنده فينبعث منه خوف
يوجب تركه في المستقبل من ملاحظة الماضي الثالث ان يتوب عن صغيرة او صغائر وهو مصر على
كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة او عن النظر الى غير المحرم وما يجري مجراه وهو مصر على
شرب الخمر وهو ايضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خائف من معاصيه ونادم على
فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن يكون لذة نفسه في تلك المعصية اقوى من الم قلبه في الخوف
منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة واسباب توجب قوة الشهوة [illegible]
موجود ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة اقوى منه بان لم يعارضه الا ما هو
اضعف منه قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد يشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يصبر
على الصبر عنه ويكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله تعالى
قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث
العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة
في بعض المعاصي فلا ينبغي ان اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي
فلا ينبغي ان اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي فعسى ان
اغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان
يصلي ويصوم ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان امر
الله فيهما واحد فلا يتصور ان تقصد بتلك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا
محال بل يقول لله علي امران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وانا مليء في احدهما بقهر الشيطان
عاجز عنه في الآخر فانا اقهره فيما اقدر عليه وارجو بمجاهدتي فيه ان يكفر عني ما عجزت عنه بفرط
شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة ومعصية ولا
سبب له الا هذا واذا فهم هذا ان غلبة الخوف الشهوة في بعض الذنوب ممكن وجوده والخوف

ولو كان من فضل ما لم ... النية بالندم يوجب العزم وقد قال صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط
التوبة على كل ذنب وقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه
المعاني يتبين أن التوبة عن بعض الذنوب ممكن لأنها غالبة في حق الشهوة وفي حق التوبة
الله غير بجعل ثم خمر ان يتوب عن الخمر دون النبيذ للتأويل في أمثال الخط ويتوب عن الكثرة دون
القليل لأن كثرة المعصية تابع في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوة
وكالمريض الذي يحذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا
أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد أن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه إما في شدة
المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله
في الخوف والندم فيتصور لاختلافه حاله في الترك فندمه على تلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه
بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله تعالى في جميع الأوامر والنواهي فإن قلت فهل تصح توبة العنين
من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة قلنا لا لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما
يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة
تحقق بها ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم ولو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم
تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو
تاب قبل طريان العنة ومات عقيبه كان من التائبين وإن لم تهجم عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر
أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده
فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فإن كل من لا يشتهي شيئا
يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر
أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم والآخر
شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى
الندم حيث يقوى على محو دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد
التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا
فإن قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع
إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه فقال أحمد بن أبي
الحواري في أصحاب أبي سليمان الداراني رحمة الله عليهما أن المجاهد أفضل لأن مع التوبة فضل الجهاد وقال

عليها البعض فذلك الأكثر أفضل لانه وهن نفسه بتوبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد الذي هو في حربه
المتعرض من المجاهدة وما قال الكل فلعله من الزيغ لا يخلو من خوف من معصية من كمال المعصية ولكن
فيه ان الذي انقطع نزوع نفسه لحالتان احداهما ان يكون انقطاع نزوعها بسبب فتور في اصل الشهوة
فقط فالمجاهد افضل من هذا اذ ترك المجاهدة تدل على قوة دينه واستيلاء دينه على شهوته
فهو دليل قاطع على قوة اليقين ودليل على قوة النفس والمعني بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة
اليقين وقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشيطان فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا والحالة
الثانية ان هذا البهيم او افتر لا يرجع الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطا
المطلق
وهو كقول القائل العنين افضل لانه في امن من خطر الشهوة والصبي افضل من البالغ لانه اسلم
افضل من الملك القاهر المتابع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات
فهذا كلام يميل بسمع المتنبه فاسد النظر الى الظاهر من غير علم بان العزة في الاخطار وان العلو في
اقتحام الاغوار بل هو كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب افضل في صناعة الاصطياد
واعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه آمن من ان يجمح به فرسه فيكسر اعضاءه عند السقوط على
الارض وآمن من ان يعضه الكلب ويعتدي عليه وهذا خطا بل صاحب الفرس والكلب اذا كان
قويا عالما بطريق تاديبهما اعلى رتبة واحرى بدرك سعادة الصيد الحالة الثانية ان يكون بطلان
النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى
تادبت بادب الشرع فلا تهيج الا باشارة الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا اعلى
من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل لذلك فضل المجاهد ففاته الاعلى
لجهله فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود منه قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته وان
عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت
في المجاهدة فانت بعد في طلب الظفر ومثال ذلك الامن قهر العدو واسترقه بالاضافة الى من
مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله ايضا مثال من علم كلبا للصيد وراض
الفرس ومهما تاديبا عنه بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الى من هو مشغول
بمقاساة التاديب بعد ولعل ذلك هنا قد يظن ان الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلم
ان ذلك طلب الخلاص من عوائق الطريق ومثل اشرف ان قمع الشهوات واماتتها بالكلية مقصود
حتى جرب بعضهم نفسه في ذلك فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة

والشره في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد ذكرنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع
المهلكات فان قلت فان كان هذا التائب احدهما في الذنب ثم يشتغل بالتفكر فيه والاحجاب
عنه ولا يتركه التفكر فيه بحيث ينساه ايهما افضل فاعلم ان هذا قد اختلفوا فيه فقال
بعضهم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك وكلا
من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة ابدا يكون قاصرا فان عادة كل
واحد منهم ان يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فلذلك اختلفت الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا
نقصان بالاضافة الى درجة الكمال فان معرفة الاشياء على ما هي عليه افضل واعلى ولكنه كال
بالاضافة الى هذه الارادة والجد حيث يكون مستغرقا مقصور النظر على حال نفسه ولا يهمه امر غيره
او طريقه الى الله تعالى ومنازله في السلوك قد يكون من طريق الخوف والرجاء والتعليم فالطرق الى
الله كثيرة وان كانت مختلفة في القرب والبعد والله اعلم بمن هو اهدى سبيلا مع الاشتراك في
اصل الهداية فاقول تنصب الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ المريد لانه اذا نسيه
لم يكثر الحراقة فلا يتوب ولا يحذر وانبعاثه لسلوك الطريق لان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع
عن الرجوع الى مثله فهو الافضل الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصانا
فانه شغل مانع من سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي ان لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له
مبادئ الوصول وانكشف له انوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات
الى ما سبق من الاحوال وهذا الكمال بل هو كمن انطلق من البلد الى بلد من البلاد نحو جاهلا بالصعب
المسافة في عبوره من حيث انه كان قد خرب جسر من جبل وقد ظفر على شاطئ النهر وجوده وبكى
متاسفا على تخريبه الجسر كان هذا ما فيه كمن اشتغل به بعد الفراغ من ذلك لمانع ضيع انه لم يكن أكد
وقت الحبل بان كان بلا متعذرا السلوك وكان على طريقه انهار مرعبات في تخطيها خيرا
فيعطل بالتقليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر يتأكد بطول الحزن عزمه على ان لا يعود الى
مثله فان حصل له من التنبه ما وثق به ان لا يعود الى مثله فان تحصل له من التنبه ما وثق
ان لا يعود الى مثله فسلوك الطريق اولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه
الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد اشرنا الى تلويحات منه في كتاب
العلم وفي ربع المهلكات بل نقول لشرط دوام التوبة ان يكون كثير التفكر في نعيم الآخرة لتزيد
بغيته ولكن ان كان شابا فلا ينبغي ان يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور

فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ويطلب لذاته ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي ان يتفكر في لذة النظر
الي وجه الله تعالى فقط فذلك لا يغلبه في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدئ
ايضا قد يستضر به فيكون النسيان افضل له عند ذلك ولا ينبغي ان تغتر عن التصديق بهذا الحق
بما يحكى لك من بكاء داود عليه السلام ونياحته فقياس نفسك على الانبياء عليهم السلام قياس
في غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون في اقوالهم وافعالهم الى الدرجات اللائقة باممهم فانهم ما بعثوا
الا لارشادهم فعليهم التلبيس بما ينتفع اممهم بمشاهدتهم وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم
فقد كان في الشرع من لا يشرع طريقه بنوع رياضة لاخذ بعضهم منها فقد كان مستغنيا عنها
لنزاهته عن المجاهدة وتاديب النفس ولكن تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
اني لا انسى ولكن انسى لاشرع وفي لفظ انما انسى لاسن ولا تتعجب من هذا فان الامم في كنف
شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة اما ترى الاب اذا
اراد ان يستنطق ولده الصبي كيف ينزل الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن
كخ كخ لما اخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن ان يقول ارم هذه
التمرة فانها حرام ولكنه لما علم انه لا يفهم منطقه ترك فصاحته ونزل الى لكنته بل الذي يعلم شاة
او طائرا يصوت به رغاء او صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه فاياك ان تغفل
عن امثال هذه الدقائق فانها مزلة اقدام العارفين فضلا عن الغافلين

بيان

اقسام العباد في دوام التوبة اعلم ان التائبين في التوبة على اربع طبقات الطبقة الاولى
ان يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط من امره ولا يحدث نفسه
بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة
فهذا هو الاستقامة في التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات
واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع الى
ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون
المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم اوزارهم فوردوا القيامة خفافا فان فيه اشارة الى
انهم كانوا تحت اوزار وضعها الذكر عنهم واهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى
الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك
صراعها ومن تائب لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع

ايضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الانواع وكذلك تختلف من حيث طول العمر
فمنهم من قويت توبته فيضغط على ذلك بسلامته ومنهم من قبل الفترة ومن هو سالم الجهاد مصبرا
ومنهم دائم الاستقامة وكم من عثرة وهذا اعلى وافضل اذ كل سيئة فانما يمحوها حسنة حتى
قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي ان يمكث عشر سنوات مع صدق التوبة ثم يعبد الله عشرة
ويكثر بهوى تشعرها من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان لا ينكر عظم اثره لو وقع ولكن لا ينبغي لاحد
الضعفاء ان يسلك هذا الطريق فيهيج الشهوة ويحضر الاسباب حتى يمكن ثم يطمع في الانفكاك
فانه لا يبعد خروج عنان الشهوة من اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقه الفرار
من اسباب الاسباب المثيرة لها حتى يستمر ثباتها على نفسه ويبقى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر
عليه فتسلم توبته في الابتداء. الطبقة الثانية تائب يسلك طريق الاستقامة في امهات
الطاعات وكبائر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن
يبتلي بها في مجاري احواله من غير ان يقدم عزما على الاقدام عليها وكلما اقدم عليها اثم نفسه
وندم وتأسف وجدد عزمه على ان يتشمر للاحتراز من اسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة
بان تكون هي النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم
عزم وتخمير راي وقصد وهذه ايضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي اغلب
احوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي فقل ما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره
شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما ان تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد
وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله اذ قال الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع
المغفرة فكل الم يقع بصغيرة لا عن توطين نفس عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه وقال تعالى
والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فاثنى عليهم مع ظلمهم
انفسهم لتندمهم ولومهم انفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه
عنه علي رضي الله عنه خياركم كل مفتن تواب وفي خبر آخر المؤمن كالسنبلة تفيء احيانا وتميل احيانا
وفي الخبر لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة اي الحين بعد الحين فكل ذلك ادلة قاطعة
على ان هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة
التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناول من الفواكه والاطعمة الحارة
مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره

عن التكرار والتعليق في اوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان المتفقه
بل الفقيه في الدين هو الذي لا يويس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة
السيئات المختطفات قال صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون وقال ايضا
صلى الله عليه وسلم المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه اي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال
تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة
اصلا الطبقة الثالثة ان يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوة في بعض ذنوبه فيقدم
عليها عن قصد وصدق شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك
جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة او الشهوتان وهو يود ان
لو اقدره الله على قمعها وكفاه شرها هذه امنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ
يتندم ويقول ليتني لم افعله وسأتوب عنه واجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول له نفسه ويسوف
توبته مرة بعد اخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين
قال تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فامره من حيث مواظبته
على الطاعات وكراهيته لما تعاطاه مرجو فعسى الله ان يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه
وتاخيره وربما يختطف قبل التوبة ويقع امره في المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره
وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى ان يحق عليه
في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاشتغال
بالتعلم دل تعذره على انه سبق له في الازل ان يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء
في حقه واذا تيسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له في الازل ان يكون
من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير
مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول الفقه
المنفي الذي به يستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على التفقه النفس
فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقه
والتفقه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا
بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الازل تدبير رب العالمين ولذلك قال الله تعالى ونفس
وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دسيها فهما وقع العبد

في ذنب فصار الذنب مقداراً التي تبرز فيه كانت هذه من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان
الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من اهلها ولا يبقى بينه وبينها الا شبر فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله
اذ يمكن ان يكون الموت متصلاً به فليراقب الانفاس والاوقع المحذور ويدوم الحسرات حين لا ينفع
الطبقة الرابعة ان يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب او الذنوب
من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ومن غير ان يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع
الشهوات فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على
هذا سوء الخاتمة وامره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى
مات بالتوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل ان يشمله عموم العفو بسبب خفي
لا يطلع عليه كما لا يستحيل ان يدخل الانسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق ان يجده وكما ان يجلس في البيت
ليعلمه الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان للانبياء صلوات الله عليهم اجمعين فطلب المغفرة بالطاعات
كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب
الاعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليس من اجتهد تعلم وليس
من اتجر استغنى وليس من صلى وصام غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمين والعالمون محرومون
الا العاملين والعاملون محرومون الا المخلصين والمخلصون على خطر عظيم وكما ان من خرب
بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم انه ينتظر فضل الله تعالى بان يرزقه كنزاً يجده
تحت الارض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره
غير مستحيل في قدرة الله وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مصر على الذنوب
غير سالك سبيل المغفرة معدود عند ارباب القلوب من المغرورين الحمقى والعجب من عقل
هذا الاحمق وترويجه حماقته في صيغة حسنة اذ يقول ان الله تعالى كريم وجنته ليست تضيق
عن مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار في طلب الدينار واذا قيل
له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس
في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول
ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الارباب
واجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد

وان سنته جميعا لا تبديل لها فيهما جميعا وانه تعالى اخبر بذلك اذ قال وان ليس للانسان الا ما
سعى فكيف يعتقد انه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يتوهم ان ليس مقتضى الكرم [illegible]
كسب المال ومقتضاه التسوية بين الملك المقيم والنعيم الدائم وان ذلك بحكم الكرم [illegible] جهد
وهذا يتعهد مع شدة الاجتهاد في غالب الامر في الدنيا يعني قوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون
فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على ام الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وما احرى
جدير بان يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا
وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا اي ابصرنا انك صدقت اذ قلت وان ليس للانسان الا ما سعى
فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل
والشك والارتياب السابق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب بيان ما ينبغي ان يبادر اليه
التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة او عن الماام بحكم الاتفاق اعلم ان الواجب عليه
التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على
العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن احد الواجبين فلا ينبغي ان يترك الواجب الثاني
وهو ان يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات
المكفرة للسيئات اما بالقلب او باللسان او بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما
يتعلق باسبابها فاما بالقلب فيكفره بالتضرع الى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل
تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد
الآبق المذنب وجه للتكبر على العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات
واما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي
ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما اوردناه في كتاب الدعوات والاذكار واما بالجوارح
فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات وفي الآثار ما يدل على ان الذنب اذا اتبع بثمانية
اعمال كان العفو عنه مرجوا اربعة من اعمال القلوب وهي التوبة او العزم على التوبة وحب
الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له واربعة من اعمال الجوارح وهو ان
يصلي عقيب الذنب ركعتين ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة ويقول سبحان الله العظيم وبحمده
مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ثم يصوم يوما وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء ويدخل المسجد فيصلي
ركعتين وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء ويدخل المسجد فيصلي ركعتين وفي بعض الاخبار يصلي

اربع ركعات وفي الخبر اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك
قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفي الخبر الصحيح ان رجلا
قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني عالجت امراة فاصبت منها كل شي الا المسيس فاقض علي
بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم اوما صليت معنا صلاة الغداة فقال بلى فقال ان الحسنات
يذهبن السيئات وهذا يدل على ان ما دون الزنا من معالجة النسا صغيرة اذ جعل الصلاة
كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى
الاحوال كلها ينبغي ان يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات
فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفي الخبر المستغفر من
الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول استغفر الله من قولي استغفر الله
وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية رحمها الله استغفارنا
يحتاج الى استغفار فاعلم انه قد ورد في فضل الاستغفار اخبار خارجة عن الحصر ذكرناها
في كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال
وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وكان بعض
الصحابة يقول كان لنا امانان ذهب احدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار فان
ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من
غير ان يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن راس الغفلة استغفر الله وكما
يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير ان يتاثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان
ولا جدوى له فاما اذا اضاف اليه تضرع القلب الى الله وابتهاله في سوال المغفرة عن صدق
ارادة وخلوص رغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح ان يدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل
الاخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما اصر من استغفر ولو عاد
في اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب والتوبة وللاستغفار درجات وأدناها
لا يخلو عن الفائدة وان لم ينته الى اعلاها ولذلك قال سهل رحمه الله لا بد للعبد في كل
حال من مولاه فاحسن احواله ان يرجع اليه في كل شي فان عصى قال يا رب استر علي فاذا
فرغ من المعصية قال يا رب تب علي فاذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة واذا عمل قال يا رب تقبل
وسئل ايضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال اول الاستغفار الاستجابة

ثم الانابة فالاستجابة اعمال الجوارح والانابة اعمال القلب والتوبة اقبال على مولاه بان يترك الخلق
ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون
عنده مأواه ثم التنقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم الصفاء
ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة لا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاؤه
والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش فيكون
مقامه مقام حملة العرش وسئل ايضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله فقال
انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى التائبون العابدون الحامدون الآية
وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود ان للتوبة ثمرتين احداهما تكفير
السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير ايضا درجات
فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات
التوبة والاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من اوائل
الدرجات فليس يخلو عن الفائدة اصلا فلا ينبغي ان يظن ان وجودها كعدمها بل عرف اهل
المشاهدة وارباب القلوب معرفة لا ريب فيها ان قول الله عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره صدق وانه لا يخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح
في الميزان عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح
الميزان باحمال الذر وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يترجح بذرات الخير الى ان يثقل
فيشيل كفة السيئات فاياك ان تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي
فلا تتقيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط
واحد وتقول اي غنى يحصل بخيط وما يقع ذلك في الثياب ولا تدري المعتوهة ان ثياب الدنيا
اجتمعت خيطا خيطا وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع
والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله اصلا بل اقول الاستغفار باللسان ايضا حسنة
اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم او فضول
كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصانا بالاضافة
الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه ابي عثمان المغربي ان لساني في بعض الاحوال يجري
بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال اشكر الله تعالى اذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير

الذكر ولم يستعمله في الشر لم يبق له الفضول وما ذكر حتى كان تعود الجوارح الخيرات حتى يصير
لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق
لسانه الي ما تعوده فقال استغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الي ان يقول ما احمقك
وما اقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادي الشر من شرير قال بحكم
سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصي في احدي الكلمتين ويسلم
في الاخري وسلامته اثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله ان الله لا يضيع اجر
المحسنين ومعاني قوله تعالي وان تك حسنة يضاعفها فانظر كيف ضاعفها اذ جعل
الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن
والفضول هذا تضعيف في الدنيا لادني الطاعات وتضعيف الآخرة اكثر لو كانوا يعلمون
فاياك ان تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك في العبادات فان هذه مكيدة
روجها الشيطان بلعنته علي المغرورين وخيل اليهم انكم ارباب البصائر واهل التفطن للخفايا
والسرائر فاي خير في ذكركم باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة الي
ثلثة اقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق اما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن كلمة
حق اردت بها باطلا فلا جرم اعذبك مرتين وارغم انفك من وجهين فاضيف الي حركة اللسان
حركة القلب فكان كالذي داوي جرح الشيطان بنثر الملح عليه واما الظالم المغرور فاستشعر في
نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر
فاسعف الشيطان وتدلي بحبل غروره فتمت بينهما المشاكلة والموافقة كما قيل وافق شن
طبقه وافقه فاعتنقه واما المقتصد فلم يقدر علي ارغامه باشراك القلب في العمل وتفطن
لنقصان حركة اللسان بالاضافة الي القلب ولكن اهتدي الي كماله بالاضافة الي السكوت والفضول
فاستمر عليه وسال الله تعالي ان يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك
ذمت حياكته فتركها واصبح كاتبا والظالم المغفل كالذي ترك الحياكة واصبح كناسا والمقتصد
كالذي عجز عن الكتابة فقال لا انكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الي الكاتب
لا بالاضافة الي الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا اترك الحياكة ولما قالت رابعة العدوية رحمها
الله استغفارنا يحتاج الي استغفار فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم
غفلة القلب فهو يحتاج الي الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفا

باللسان ايضاً التحلج الى استغفار لا لياً استغفار واحد فهكذا ينبغي ان تفهم ذم ما يذم وحمد
ما يحمد والا جهلت ما قال الصادق رضي الله عنه حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه امور
تثبت بالاضافة فلا ينبغي ان تؤخذ من غير اضافة بل ينبغي ان لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي
ولذلك قال جعفر الصادق رضي الله عنه خبا الله ثلثاً في ثلث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً
فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته
في عباده فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولي الله وزاد وخبأ اجابته في دعائه فلا تتركوا
الدعاء فربما كانت الاجابة فيه **الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل**
عقدة الاصرار اعلم ان الناس قسمان شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي
قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عجب ربك من الشاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر والقسم الثاني
هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا ان نبين
العلاج في حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم ان شفاء التوبة لا يحصل الا بالدواء ولا يقف
على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا مناقضة اسباب الداء فكل داء حصل من
سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وابطاله ولا يبطل الشيء الا بضده ولا سبب للاصرار الا
الغفلة والشهوة ولا تضاد الغفلة الا العلم ولا تضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة
للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى اولئك هم الغافلون لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون
فلا دواء اذا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر كما يجمع في السكنجبين بين
حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع
الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي ان تفهم علاج القلب فدواؤه من مرض الاصرار فاذاً
لهذا الدواء اصلان احدهما العلم والآخر الصبر فلابد من بيانهما فان قلت اينفع كل علم في حل
الاصرار ام لابد من علم مخصوص فاعلم ان كل العلوم جملتها ادوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض
علم يخصه كما ان علم الطب نافع في علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك
داء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون اقرب الى الفهم فنقول
يحتاج المريض الى تصديق بامور الاول ان يصدق على الجملة بان للمرض وللصحة اسباباً يتوصل
اليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان باصل الطب فان من لا يؤمن
به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك ومعنا وزانه ما نحن فيه الايمان باصل الشرع وهو ان

السعادة في الآخرة سببا وهو الطاعة وللشقاوة سببا وهو المعصية وهو الإيمان باصل
الشرائع وهذا لابد من حصوله اما عن تحقيق او تقليد وكلاهما من جملة الإيمان الثاني انه لابد
ان يعتقد المريض في طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر به لا يلبس ولا
يكذب فان ايمانه باصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه ما نحن فيه العلم بصدق
الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بكل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف الثالث انه
لابد وان يصغى الى الطبيب فيما يحذره من تناول المؤكل والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه
الخوف في ترك الاحتما فيكون شدة الخوف باعثة له على الاحتما ووزانه من الدين الاصغا
الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى
والتصديق بجميع ما يلقى اليه من ذلك من غير شك وارتياب حتى ينبعث به الخوف المقوى
على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج الرابع ان يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه
في نفسه الاحتما عنه ليعرفه اولا تفصيل ما يضره من افعاله واحواله وماكوله ومشروبه فليس على كل
مريض الاحتما عن كل شيء ولا ينفعه كل دوا بل لكل علة علم خاص وعلاج خاص ووزانه
من الدين ان كل عبد فليس مبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص
او ذنوب مخصوصة انما حاجته في الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر
ضررها في الدين ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها
فهذه علوم يختص بها اطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالعاصي ان علم عصيانه
فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدري ان ما يرتكبه ذنب فعلى العالم
ان يعرفه ذلك بان يتكفل كل عالم باقليم او بلدة او محلة او مسجد فيعلم اهله دينهم ويميز ما يضرهم
مما ينفعهم وما يشقيهم مما يسعدهم ولا ينبغي ان يصبر الى ان يسأل عنه بل ينبغي ان يتصدى
لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم
في مجامعهم ويدورون على ابواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان
مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما ان الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه
ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة ان يرتبوا في كل قرية
وكل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الناس لا يولدون الا جهالا فلابد من تبليغ
الدعوة اليهم في الاصل والفرع والدنيا دار مرضى اذ ليس في بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها

الاستقيم ومرض القلوب اكثر من مرض الابدان والعلماء اطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض
لم يقبل العلاج بمداواة العالم سلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي او الذي
غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن سائر الناس وانما صار مرض
القلوب اكثر من مرض الابدان لثلث علل احدها ان المريض لا يدري انه مريض والثانية ان عاقبته
غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع عنه وما بعد
الموت غير مشاهد فقلت النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض
القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فان
الاطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة
في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك
هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من ان يقال
لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون انفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الوباء وعظم الداء وانقطع الدواء
وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم اذ لم ينصحوا لم يغشوا واذ لم يصلحوا لم
يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم الا ما يرغب العوام ويستميل
قلوبهم ولا يتوصلون الى ذلك الا بالارجاء وتغليب اسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لان ذلك الذ في
الاسماع واخف على الطباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد
ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا او خائنا اهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء
والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة اما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف
نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة اسرافه في الخوف بذكر اسباب الرجاء ليعود
الى الاعتدال وكذا المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع منها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه
التي سبقت يعالج ايضا باسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب فاما معالجة المغرور المسترسل
في المعاصي بذكر اسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال
والاغبياء فاذا فساد الاطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء اصلا فان قلت فاذكر الطريق
الذي ينبغي ان يسلكه الواعظ في وعظ الخلق فاعلم ان ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير
الى الانواع النافعة في حمل هذه الادوية وحمل الناس على ترك الذنوب وهي اربعة انواع النوع الاول
ان يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل

قوله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان باربعة
اصوات يقول احدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول الاخر يا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا
فيقول الاخر يا ليتهم اذ لم يعلموا لما خلقوا عملوا بما علموا وفي بعض الروايات تجالسوا فتذاكروا ما
علموا فيقول الاخر يا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف اذا اذنب العبد امر
صاحب اليمين صاحب الشمال وهو امير عليه ان يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم [يكتبها]
عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف ما من عبد يعصي الا استاذن مكانه من الارض ان يخسف
به واستاذن سقفه من السماء ان يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن
عبدي وامهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه لعله يتوب الي فاغفر له لعله يستبدل صالحا
فابدله حسنات وذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من
احد من بعده وفي حديث عمر بن الخطاب الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت
الحرمات واستحلت المحارم ارسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفي حديث مجاهد القلب
مثل الكف المفتوحة كلما اذنب ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب
فذلك هو القفل وقال الحسن رحمه الله ان بين العبد وبين الله حدا في المعاصي معلوما
اذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير والاخبار والآثار في ذم المعاصي يصعب ان ناتي
لا تحصى فينبغي ان نذكر الاعظم منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما خلف دينارا
ولا درهما وانما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما اصابه النوع الثاني حكايات الانبياء
والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع عظيم النفع في قلوب الخلق مثل
احوال آدم عليه السلام في عصيانه وما لقي من الاخراج من الجنة حتى روي انه لما اكل الشجرة تطايرت
الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيى التاج والاكليل من وجهه ان يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام
فاخذ التاج عن راسه وحل الاكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري فانه لا
يجاورني من عصاني فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا اول شؤم المعصية اخرجنا من جوار الحبيب
وروي ان سليمان عليه السلام لما عوتب على خطيئته لاجل التمثال الذي عبد في داره اربعين يوما
وقيل لان المراة سالته ان يحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل احب بقلبه ان يكون الحكم لابيها
على خصمه فسلب ملكه اربعين يوما فهرب تائها على وجهه وكان يسال بكفه فلا يطعمه احد فاذا
قال اطعموني فاني سليمان بن داود شج وضرب ويحكى انه استطعم من بيت امراة فطردته وبصقت

في وجهه وفي رواية فانتبهت فزعا فجعلت فيها ولا ثبتت على رأسي الى ان اخرج الطعام من بطن لكن
قلبه بعد انقضاء الاربعين ايام العقوبة قال فجاءت الطير فمكثت على رأسه وجاءت الجن والبنت عليه
ما ابصرت فاجتمعت حوله فلعنه الله بعض من كان حوله عليه فقال لا الذي كنتم فيما مضى من قبل
ولا اجهكم في عندكم الآن هذا امر كان من السماء لا بد منه وروي في الاسرائيليات ان رجلا تزوج
بامرأة من بلدة اخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه مطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله
تعالى ببركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى انه قال للخضر عليهما السلام بم اطلعك
الله تعالى على علم الغيب قال بترك المعاصي لاجل الله وروي ان الريح كانت تسير بسليمان فنظر الى قميصه
نظرة وكان عليه قميص جديد فكأنه اعجبه فوضعته الريح فقال لم فعلت ولم آمرك قالت انما
نطيعك اذا اطعت الله وروي ان الله تعالى اوحى الى يعقوب عليه السلام اتدري لم فرقت بينك وبين
ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته اخاف ان يأكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجني
ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي ولذلك لما قال يوسف اذكرني عند ربك
[illegible] فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وتدري لم رددته عليك قال
لا قال لانك رجوتني وقلت عسى الله ان يأتيني بهم جميعا ولما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف
واخيه ولا تيأسوا من روح الله وامثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار ورود
الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب
الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم في ان عجلت لهم العقوبة
ولم تؤخر الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ولان عذاب الآخرة اشد واكبر فهذا ايضا
مما ينبغي ان يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة النوع الثالث ان
يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو
بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في امر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا اكثر لفرط جهله
فينبغي ان يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الامر كما حكي في قصة داود
وسليمان عليهما السلام حتى انه يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد يسقط منزلته من القلوب
ويستولي عليه اعداؤه قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود
رضي الله عنه اني لاحسب ان العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم
من قارف ذنبا فارقه عقل لا يرجع اليه ابدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه

ونقصانا في المال انما العقد ان لا اخرج من ذنب الا وقعت في مثله او شر منه وهو كما قال لان اللعنة
هي الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد ابعد والحرمان عن رزق التوفيق اعظم حرمان
وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين
للذنوب ومجالسة الصالحين بل يمقته الله لتجري محكي عن بعض العارفين انه كان يمشي في
الوحل جامعا ثيابه محترزا حتى زلت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي وهو
يقول هذا مثل العبد الذي لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها
يخوض في الذنوب خوضا اشارة الى ان الذنب تعجل عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك
قال الفضيل رحمه الله عليه ما انكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك
وقال بعضهم اني لاعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال اعرف العقوبة حتى في فارة بيتي قال
بعض صوفية الشام نظرت الى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت انظر اليه فمر بي ابن الجلاء
الدمشقي فاخذ بيدي فاستحييت منه فقلت يا ابا عبد الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه
الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بعد
ثلثين سنة وقال ابو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت احدا صلوة جماعة الا بذنب
يذنبه وفي الخبر ما انكرتم من زمانكم فبما غيرتم من اعمالكم وفي الخبر يقول الله ان ادنى ما اصنع بالعبد
اذا اثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي وحكي عن ابي عمرو بن علوان في قصة طويلة
قال فيها كنت قائما ذات يوم اصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكري حتى تولد منه شهوة الرجال
فوقعت الى الارض واسود جسدي كله فاستترت في البيت ولم اخرج ثلثة ايام وكنت اعالج غسله
في الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلثة ايام فلقيت الجنيد رحمه الله عليه
وكان قد وجه الي فاشخصني من الرقة فلما اتيته قال لي اما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين
يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برهة فاخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا اني
دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله تعالى بذلك اللون قال فعجبت كيف علم ذلك وهو ببغداد
وانا بالرقة واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا اظهر السواد على
ظاهره لينزجر وان كان شقيا اخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والاخبار كثيرة في آفات
الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شوم الذنب في الدنيا على الجملة ان يكتسب ما بعده
صفته فاذا ابتلي بذنب كان عقوبته له ويحرم حبل الصبر حتى يتضاعف شقاوته وان اصابه

نعمة كان استعمالها له بحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه واما المطيع فمن بركة طاعته
ان يكون نعمته نعمة جزاء على طاعته ويوفق لشكرها بكل نعمة كذلك لانه وجه زيادة له ثم جماع الامر
ذكر ما ورد من العقوبات على كبائر الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد
ونحو ذلك مما لا يمكن حصره وذلك مع جزاء عمله ووضع للدواء في غير موضعه بل ينبغي ان يكون العالم كالطبيب
الحاذق يستدل اولا بالنبض والسحنة ونحو الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها
فليستدل بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه
وسلم حيث قال له واحد اوصني ولا تكثر علي فقال لا تغضب وقال آخر اوصني فقال عليك باليأس
مما في ايدي الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع واياك
وما يعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع اوصني فقال اوصيك ان تكون ملكا في الدنيا والآخرة
قال كيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل مخايل الغضب
فنهاه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع في السائل
مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل [illegible] اوصني فقال كن رحيما اكن لك بالجنة زعيما فكأنه
تفرس فيه الفظاظة والغلظة وقال رجل لابراهيم بن ادهم اوصني فقال اياك والناس وعليك
بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم الناس ولكن ليس كل الناس بالناس ذهب الناس
وبقي النسناس وما اراهم بالناس بل غمسوا في ماء الناس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة الا بحذر
فكان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب اذاء بالناس والكلام على قدر حال السائل
اولى من ان يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية الى عائشة رضي الله عنها ان اكتبي لي كتابا
توصيني فيه ولا تكثري فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك اما بعد فاني سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ومن التمس
رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام عليك فانظر الى فقهها كيف تفطنت للآفة
التي تكون الولاة بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت مرة اخرى اما بعد فاتق
الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس واذا اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئا والسلام فاذا
على كل ناصح ان تكون عنايته مصروفة الى تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللائقة ليكون
الاشتغال بالمهم فان حكاية جميع وظائف الشرع مع كل واحد غير ممكن والاشتغال بحفظ ما
يستغني عن الوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم في جمع اصناف الناس

يدري يا من حاله ان يعظ فكيف يعمل فاعلم ان طريقه في ذلك ان يعظ بما يشترك كافة الخلق في
الحاجة اليه اما في العموم واما في الاكثر فان في علم الشرع اغذية وادوية فالاغذية للكافة والادوية لاحاد
الخلق ومثال ما روي ان رجلا قال لابي سعيد الخدري رضي الله عنه اوصني فقال عليك بتقوى الله
فانه راس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في اهل الارض
وذكر لك في اهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن رضي
الله عنه اوصني فقال اعز امر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك
وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا على
اعناق الرجال ولا تصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة افضل من الصوم
ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين وقال ايضا لابنه يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في
غير ارب ولا تسال عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما
تركت يا بني انه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك
لسانه يندم وقال رجل لابي حازم اوصني فقال كل ما لو جاءك الموت عليه رأيته غنيمة فالزمه
وكل ما لو جاءك الموت عليه رأيته مصيبة فاجتنبه وقال موسى للخضر عليهما السلم اوصني فقال كن
بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك
من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد بن كرام اوصني
فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف اوصني فقال
اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف كيلا تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا
الا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه وكتب الحسن الى
عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليهما اما بعد فخف ما خوفك الله واحذر ما حذرك الله وخذ مما في يديك لما
بين يديك فعند الموت ياتيك الخبر اليقين والسلام وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله ان
يعظه فكتب اليه اما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات امامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك
اما بالنجاة واما بالعطب واعلم ان من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب
نجا ومن اطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف امن ومن امن اعتبر ومن اعتبر ابصر ومن ابصر فهم
ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فسل واذا غضبت فامسك وكتب
مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه اما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له

وبها خبر من لا علم له فكن فيها يا امير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف
من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارطاة اما بعد فان الدنيا عدوة اوليا
الله وعدوة اعداء الله اما اولياء الله فغمتهم واما اعداء الله فغرتهم وكتب ايضا الى بعض عماله اما
بعد فقد امكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم احد فاذكر قدرة الله عليك واعلم
انك لا تأتي الى الناس شيئا الا كان زائلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله تعالى آخذ للمظلومين من
الظالمين والسلام فهكذا ينبغي ان يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري نفسه واشباه
هذه المواعظ مثل الاغذية التي يشترك العامة في الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ
انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي وانتشر الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعا وينشدون
ابياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب الناس
وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القائل متكلف والمستمع متكلف
وكل واحد منهما مدبر ومتخلف واذا كان طلب الطبيب اولى في علاج المرض فطلب العلماء اولى في علاج
المعاصي فهذا احد اركان العلاج واصول الاصل الثاني الصبر ووجه الحاجة اليه ان المريض
انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يتناوله اما لغفلته عن مضرته واما لشدة غلبة شهوته
فله سببان فما ذكرناه علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجه قد ذكرناه في كتاب رياضة
النفس ومحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته بماكول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره
ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر
بقوة الخوف على الالم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة
في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وحفظ قلبه او حفظ
جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي ان يستشعر ضرر ذنبه بان يستقري المخوفات الواردة
فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد عن الاسباب
المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة
ومن داخل تناول لذائذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا
عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وتفكر او عن سماع وتقليد فاول الامر حضور
مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام
الفهم وينبعث من تمامه لا محالة واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي

لطلب الصلاح وثوقا بالله وتيسير من وراء ذلك فمن اعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف
فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى ثم لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء
الا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان
ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يحصل الا بالعلم بعظم ضرر
الذنوب وهو تصديق الله ورسوله فهو الايمان فكل من اصر على الذنب لم يصر الا لانه غير مؤمن فاعلم
ان هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بان المعصية سبب
البعد من الله وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب امور احدها ان العقاب الموعود
غيب وليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها
بالحاضر الثاني ان الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي
ذلك واستولى بسبب الاعتياد والالفة والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف
الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى بل
تؤثرون الحيوة الدنيا ويدل على شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره
وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق النار فقال لجبريل اذهب
فانظر اليها فذهب فنظر اليها فقال وعزتك لا يسمع بها احد فيدخلها فحفها بالشهوات
ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يبقى احد الا دخلها وخلق الجنة
فقال لجبريل اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها احد الا دخلها فحفها بالمكاره
ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها احد فاذا كون الشهوة
مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع
حصول الايمان فليس كل من يشرب في مرضه الماء الثلج لشدة عطشه مكذبا باصل الطب ولا مكذبا
بان ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر الثالث
انه ما من مذنب مؤمن الا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد
بان ذلك يجبره ويجر الآن طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث
رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان الرابع انه ما من مؤمن موقن الا وهو معتقد ان
الذنب لا يوجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو اتكالا على فضل الله